أبو الحسن علي الحسني الندوي
ومنابعُ فكره ومنهجه

محمد واضح رشيد الحسني الندوي

جمع ومراجعة
محمد وثيق الندوي

الناشر
دار الرشيد
لكهنؤ

حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٣٩هـ ٢٠١٧م

اسم الكتاب : أبو الحسن علي الحسني الندوي

ومنابع فكره ومنهجه

مؤلف الكتاب: الشيخ محمد واضح رشيد الحسني الندوي

جمع ومراجعة : محمد وثيق الندوي

الصفحات: ١٢٠

النسخ: ١١٠٠

ثمن النسخة: [illegible] روبية هندية

دار الرشيد Dar Al Rasheed

164/106 Khatoon Manzil, Haidar Mirza Road
Golaganj, Lucknow. Mo: 9452294097-9838154415
e-mail:darairasheed17@gmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة بين يدي الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين خاتم النبيين سيدنا محمد بن عبد الله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان ودعا بدعوتهم إلى يوم الدين وبعد.

فهذه مجموعة مقالات كتبتُها عن مختلف حوانب حياة وفكر سماحة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي رحمه الله تعالى، وقد استفدت فيها من السيرة الذاتية لسماحته، التي ذكر فيها الشخصيات التي التقى بها، والأحداث التي وقعت في حياته، وكان لها أثر على حياته، والحركات التي قامت في عهده في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية، والشخصيات التي أثرت على فكره، ووجهته إلى ما يليق به من الاهتمام بها.

وقد كان الشيخ الندوي شخصية جامعة، لأنه نهل من مناهل مختلفة، فهو أديب، ومفسر، و محدث، ومفكر، وكاتب، ومؤرخ، وله أسلوب خاص، وصفه الشيخ محمد المجذوب بالأسلوب الندوي، وهو مفكر يصل إلى أعماق القضايا وحلولها كما أنه صاحب دراسة عميقة مقارنة بين الفكر الإسلامي والفكر

الغربي، ولا يقوم فكره على الكتب والعاطفة، بل على الدراسات العميقة، وبالإضافة إلى ذلك يتميز أسلوبه بالذوق الأدبي والتحليل العلمي، ويؤثر على القلب والفكر معاً.

ألقي الضوء في هذه المقالات على نشأة الشيخ الندوي الفكرية، وعلى مناهج الفكر والدعوة والعلم والتعليم التي نهل منها، والشخصيات والكتب التي تأثر بها وأثرت هذه الشخصيات والكتب ومراحل النشأة الفكرية على اتجاه حياته ودوره في مختلف مجالات العمل.

عرضت هذه المقالات في مختلف الندوات، وقد جمعها الأخ العزيز محمد وثيق الندوي ورتّبها، وقد كانت بعض المقالات بالأردية فنقلها إلى العربية، وهو متخصص في ذلك، وله خبرة في هذا المجال، أدعو الله له التوفيق والسداد.

محمد واضح رشيد الحسني الندوي

٢٣/شعبان /١٤٣٨هـ

٢٠/مايو/٢٠١٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

سماحة الشيخ محمد الرابع الحسني الندوي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين وخاتم النبيين محمد بن عبد الله الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد!

فإن أجزاء العالم اليوم بشعوبها ودياناتها المختلفة، تملك أصنافاً من تراث الحضارات الماضية والأديان المختلفة، والثقافات المتنوعة، فأصبح هذا الاختلاف في شتى نظراتها وأصناف تراثها الديني والثقافي للاختلاف والتعارض بينها مما قد يجرّ إلى مشاحنات بينها، ومشكلات تسوق إلى العداوة والخصومة الشديدة بينها، فساق ذلك الاختلاف البعض إلى التشاحن والعداوة بين الشعوب والأديان رغم توحُّدها في وسائل المعيشة والتقارب في مسالك الحياة، وان الصراع إذا كان بين كبير وصغير أو قوي وضعيف بغلبة القوي على الضعيف، فقد تسوق هذه الغلبة إلى الظلم وبخس الحق.

ونرى في هذا الصراع خطراً كبيراً على الحضارة، وعلى شعوب العالم وأديانه، وعلى السلام العالمي، وبالنسبة إلى المسلمين وهم يشكلون ربع سكان العالم، وهم ينتشرون في معظم بقاع العالم

المعمور، ولا يتحقق السلام لهم إلا بروح التفاهم والتعايش السلمي بين هذه الشعوب والديانات المختلفة، ولكونهم أقلية بالنسبة إلى غيرهم في كثير من البلدان يتعرضون للاتهام بالعدوان على غيرهم رغم التزامهم بتعاليم دينهم بالمسالمة للناس وعملهم بذلك، فهم يستحقون بمعاملة التفاهم من أذهان رجال الفكر والقيادة في العالم، حتى يمكن التلاقي والتفاهم في مجالات الحياة المشتركة بين الأصناف الثقافية والدينية المختلفة في العالم، وكذلك بين الاتجاهات المختلفة في تصورات الحياة.

وإن هناك قيماً إنسانية متفقة عليها في كافة أصناف البشر يمكن التوافق عليها بين الأطراف المختلفة، وحينما تجتمع الأطراف المختلفة على قيم ونظرات إنسانية مشتركة يسهل التعاون والتوافق بين هذه الأطراف في العالم، ويزول الصدام بين هذه الأطراف الذي سماه المفكر الإنجليزي صموئيل هنتنغتن "صدام الحضارات" مع أن هذا المصطلح الذي عمَّ في أوساط ذات القوى العالمية ليس مصطلحاً موافقاً للواقع، فإن الصراع اليوم ليس صراع الحضارات، بل إنه صراع جاء من مطامع طبيعة الإنسان لحب النفعية والاستغلال، ويظهر من أحوال الصراع في العالم اليوم أن مرجعه هي المطامع التي تحمل أصحاب النفوذ في العالم على أن يجعلوا الآخرين تابعين لاتجاههم وفكرتهم، مع أن كل شعب من شعوب العالم يريد أن يجمع بين بقائه على خصائصه وعقائده واتجاهاته، وبين التعاون والتفاهم مع الآخرين، والعمل لصالح الإنسانية، وللسلام العالمي، وإنه توجد في جميع أديان العالم قيم إنسانية

عادلة يمكن التوافق عليها والتضامن بناء عليها فيما بين الشعوب المختلفة، وهي التي يجب أن تكون أساساً للتفاهم البشري السلمي حتى يتفق الناس على المبادئ المشتركة المنبثقة من المعاني الإنسانية الرفيعة والسلام والحفاظ على الحقوق الإنسانية المشتركة، فحينما يكون التفاهم مبنياً على هذين المبدأين يأتي بنفع كبير، والمجتمعات الإنسانية اليوم هي أحوج ما تكون إلى مثل هذا التفاهم.

كان المفكر الإسلامي سماحة العلامة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي ـ رحمه الله تعالى رحمة واسعة ـ مؤمناً بمثل هذا الحوار بناءاً على الآية الكريمة﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله﴾ [آل عمران: ٦٤] وقد حاور رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وزارهم في أماكنهم وأكل طعامهم وزاروه في بيته وأكلوا طعامه وعرض عليهم الأدلة على صدقه وصدق رسالته، وقد قام سماحته بذلك طيلة حياته من أجل توحيد صف المسلمين أولاً بالسعي لإحاطتهم بأسباب الصيانة والحفظ والسلام، ثم بإيجاد التواصل والتعاون والتفاهم والتعايش بين بني البشر وإزالة التنابز والتنافر والصراع بينهم.

لقد كان شيخنا الجليل سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسني الندوي ـ رحمه الله تعالى ـ يبذل لتحقيق هذا الهدف السامي سعياً كثيراً، وكان يلفت نظر رجالات التوجيه والتربية من أصحابه ومساعديه

من أصحاب العمل إلى أهمية ذلك، وكان ينهى عن العنف في معاملة الناس حتى المجاورين للمسلمين في بلد واحد، وكان يقول : إن الأمر ليس أمر العداوة ؛ فإن الأمر أمر سوء المعرفة، وسوء التفاهم، فيجب إزالته بالحوار مع المحافظة على قيمنا الدينية كل المحافظة، ولم يذهب نداؤه وجهده في هذا المجال سدى، فقد استطاع أداء واجبه هو وتلاميذه وأصدقاؤه.

إنه بدأ جهده في هذا المجال أولاً بالسعي في توحيد كلمة المسلمين على الصعيد الإسلامي المشترك وقام بفكرته للحوار والتفاهم لمواجهة الاضطرابات الطائفية، فقام لذلك بالحوار مع زعماء الطوائف الأخرى من المواطنين وبخاصة من أصحاب الأغلبية منها، وقام بتعاون زملائه وأحبابه بإنشاء جبهة إسلامية متحدة باسم المجلس الاستشاري الإسلامي لعموم الهند، اشتركت فيها فئات إسلامية عاملة في الهند كلها، وأدت هذه الجبهة دوراً حسناً نفع المسلمين في إقناع أصحاب الأغلبية بحق سلامة المسلمين وأمنهم، كجزء لا يتجزأ في مواطنتهم الهندية، وأدت هذه الجبهة المتحدة دوراً مهماً في إقناع عقلاء الأغلبية من أصحاب السيادة في البلاد كما جعلت الأقلية المسلمة على الثقة إلى حد كبير، والاعتماد على الله في أحوال مزعجة، ومرت سنوات على ذلك واستمرت الجبهة بعملها ونالت احتراماً في نفوس المسلمين، وأدت خدمة كبيرة في هذا المجال، وثم حلت محلها جبهة أخرى.

وذلك عندما نزل بالمسلمين خطر بشأن شريعتهم الإسلامية وذلك بطلب أصحاب العلمانية والتطرف الطائفي الهندوسي المعارض للمسلمين بتوحيد قانون الأحوال الشخصية في أبناء الوطن الهندي ومعناه إلغاء أحكام الدين الإسلامي وضمها إلى أحكام الأغلبية، فعقد علماء المسلمين وزعماء فكرهم مؤتمراً عظيماً حافلاً وأعربوا عن استنكارهم لأي تدخل يريده أصحاب الأغلبية في شأن الشريعة الإسلامية، رغم ما يضمنه الدستور الهندي من حق كل طائفة دينية في العمل بشريعتها وأنشأ المسلمون لمواجهة هذا الخطر الجديد جبهة متحدة للمسلمين مرة أخرى وهي للدفاع عن حق المسلمين في العمل بشريعتهم الإسلامية اتحدت فيها كافة الفئات المسلمة في الهند مرة أخرى، وذلك باسم هيئة قانون الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند، وكانت هذه مناسبة ثانية لاتحاد فئات المسلمين المختلفة ولكن بدبلوماسية التفهيم والإيضاح السلمية والحوار مع أصحاب النفوذ السياسي والحكومي، وبرزت أمام المسلمين قضية في أمر الطلاق، وذلك عندما أصدرت المحكمة العليا حكماً مخالفاً لما تحكم به الشريعة الإسلامية في شأن الطلاق، فقامت الهيئة بحركة ديموقراطية طالبوا فيها بتصحيح هذا الحكم عن طريق المجلس التشريعي الهندي وهو برلمان الهند، لأن قضاء المحكمة العليا لا يحتمل المخالفة ولا يرد حكمها، وقد نفعت هذه الحركة المتحدة في إقناع قادة البرلمان حتى قبل رئيس وزراء الهند في ذلك الحين إثر جلسات عديدة بينه وبين سماحة الشيخ الندوي مع زميله الأمين العام

للهيئة الشيخ منت الله الرحماني رأي المسلمين في ذلك، فقدم رئيس الوزراء قراراً أكد فيه على البرلمان الهندي بأن يصدر تشريعاً لضمان العمل بالشريعة الإسلامية في موضوع الطلاق لدى المسلمين رغم مخالفة كثير من أعضاء البرلمان لهذا القرار، ونجح القرار بتأثير التأكيد على ذلك من رئيس الوزراء واتخذ تعديل موافق للمسلمين في القانون فبطل بذلك الحكم الذي كانت أصدرته المحكمة العليا.

ولا تزال هذه الهيئة قائمة، وهي تقوم بمواجهة كل أمر يشكل تحدياً لنقطة أو نقاط للشريعة الإسلامية وهي تسمى "آل انديا مسلم برسنل لا بورد" (هيئة قانون الأحوال الشخصية الإسلامية لعموم الهند).

ولا تزال مشتملة على مندوبي كافة الفئات الإسلامية في الهند وهي تعمل بالطرق السلمية وتفهيم الناس بصلاحية القضية للقبول وتختار طريقة الصداقة والتفاهم مع الفريق الآخر. والحمد لله على ذلك. وهذه الهيئة بجنب سعيها للمحافظة على قوانين الشريعة الإسلامية تقوم بأداء ما تتطلبه مصلحة الأمة الإسلامية أيضاً في الهند من إصلاح انحرافات تقع في سلوك المسلمين، وأحوال سيرتهم، وفي حياتهم الشخصية، ومن شرح قضايا الدين الإسلامي أمام رجالات العلم والقانون من غير المسلمين، وتقوم بأعمال الإصلاح.

ثم أنشأ سماحة الشيخ الندوي مؤسسة للإصلاح الاجتماعي لشئون المسلمين المنحرفة عن جادة الحق عن طريق جبهة شكلها لهذا العمل، فهي تهتم بتأكيد المسلمين على تطهير حياتهم من المساوئ الدينية

والاجتماعية والثقافية التي أصبحت سبباً لانحرافات خلقية ودينة مختلفة، فهي تعقد ملتقيات وجلسات يخاطب فيها كبار العلماء المسلمين وينصحون الحاضرين فيها بالاجتناب عن هذه الرذائل والمساوئ التي تفسد الحياة الاجتماعية للمسلمين ويلتزمون بأن يتحدثوا عن المساوئ العامة التي يرتكبها عامة الناس على اختلاف الفئات المختلفة.

وكان من الأعمال التي قام بها الشيخ الندوي رحمه الله مع عمله في المهمات المذكورة أنه أنشأ بجنب ذلك كله مؤسسة خاصة للحوار مع غير المسلمين وذلك باسم "رسالة الإنسانية" كان يعقد تحت عنوانها ملتقيات يحضرها أصحاب القيادة العلمية والدينية من غير المسلمين من مختلف الطوائف والأديان، فكان يتكلم فيها بعنوان الفضائل الإنسانية ويدعو الحاضرين إلى رعاية الفضائل الإنسانية المتفق عليها لدى جميع الديانات، وكان يذكر فيها فضيلة الإسلام بحكمة مقبولة لدى الجميع، يعقد لها اجتماعات لأبناء الطبقة المتعلمة من الطائفتين المسلمة وغير المسلمة ويدعو فيها الحاضرين إلى إصلاح نفوسهم وسلوكهم في الحياة، وإخضاعها للأخلاق الإنسانية الرشيدة، مما لا يختلف في خيرها وصلاحها دين عن دين آخر، وهي مثل: خدمة الضعفاء والمحتاجين، والتعاون على طلب الخير للجميع، والسعي لإنقاذ الناس من الوقوع في فساد ودمار ومن نشر السلام والوئام فيما بين أبناء الوطن الواحد، والمواطنين بعضهم مع بعض.

لقد عقد سماحته اجتماعات كبيرة في مدن هندية مختلفة وساعده في ذلك تلاميذه وإخوانه ممن أحبوه وصاحبوه، وبعض ذوي الإحساس الإنساني من الطبقة المتعلمة من غير المسلمين، وأثر ذلك على نفوس عدد لا بأس به من المتعلمين الكفار، حتى بعض القضاة والحكام منهم، واعتنق عدد منهم الإسلام بعد ما انشرحت صدورهم إلى دعوة سماحته والدين الذي يتبعه، وقرأوا مؤلفاته والكتب الشارحة للإسلام، ويرى سماحته أن هذه الطريقة هي الطريقة النافعة في بلد يختلط فيه المسلمون مع غير المسلمين وهي طريقة الحوار والتعريف بالإسلام ومعاملة الأجانب معاملة الأخوة والمحبة على الأساس الإنساني الكريم.

وقد استطاع سماحته بذلك وضع خطة مؤسسة ناجحة لتقريب النفوس إلى الإسلام وإذابة مشاعر الحقد والعداوة في نفوس المعادين للإسلام، وإيناسها بالإسلام، وبذلك يكسب المسلمون في البلد الكافر صداقة أعداءهم معهم أو ذوبان عداوتهم ضدهم على الأقل.

كان سماحته يرى أن الحوار البليغ المؤثر يفعل في النفوس ما لا يفعله غيره إلا نادراً، ويرى أن الاتصال بالمعارضين بالحوار الحكيم معهم يأتي بنتائج باهرة، ويرى في معاملة الحكام الجائرين أو المعادين للمسلمين أن مواجهة مخالفتهم وعداوتهم بأسلوب المعاداة يجعلهم أكثر نفوراً وابتعاداً، وقد تلجئهم المجابهة إلى اختيار سبل الظلم والقمع أكثر، فخير منهج في ذلك هو القول اللين والمعالجة الحكيمة اتباعاً لقول الله تعالى لسيدنا موسى وأخيه هارون عليهما السلام عندما أمرهما بمخاطبة

فرعون ﴿وقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى﴾ وقوله جل وعلا لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ولوكنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾.

فسماحة الشيخ السيد أبي الحسن كان يقوم بحل قضايا المسلمين في الهند بهذه الطريقة، طريقة المحبة والحوار والتعبير الدعوي المؤثر، والعمل السلمي الحكيم، مع محافظة كاملة على القيم والعقائد الإسلامية العالية، وحياة صالحة تقية فيها الزهد والقناعة لنفسه، والإخلاص وطلب الخير للجميع، وقد أحرز بمنهجه هذا حباً في قلوب الجميع، كما أحرز نجاحاً كبيراً في هدفه التربوي والإصلاحي وفي طلبه لتغيير الأوضاع الفاسدة.

قد درس الباحثون والمؤلفون حياة الشيخ الندوي وأبرزوا هذا الجانب منها، في مقالاتهم وبحوثهم، وعقدت ندوات وملتقيات محلية وعالمية حول أعماله وخدماته العلمية والتأليفية والدعوية والفكرية والأدبية، وبينوا أهمية منهجه في الدعوة والفكر والعمل والتعليم والتربية والأدب، وأكدوا على ضرورة اختياره في الظروف الراهنة، ومن هؤلاء الباحثين أخونا الفاضل الأستاذ محمد واضح رشيد الحسني الندوي رئيس الشئون التعليمية لندوة العلماء، إنه ألف كتاباً مستقلاً بعنوان" الشيخ أبو الحسن علي الندوي: قائداً حكيماً" بحث فيه فراسة الشيخ الندوي المؤمنة ومواقفه نحو الأحداث والقضايا المعاصرة، ومنهجه المعتدل في معالجتها، ودوره القيادي في مختلف مجالات الحياة، فنال القبول والتقدير في

الأوساط الإسلامية، وكذلك كتب عدة مقالات وبحوث حول منابع فكر الشيخ الندوي، وجوانب مضيئة من حياته، وخاصة شغفه بالقرآن الكريم والاستفادة والاستشهاد بآياته في خطبه، وكتاباته، ومنهجه في دراسة الحديث النبوي، وعناصر تكوين ذوقه الأدبي، ومنهجه في حل قضايا المسلمين ومشاكل الإنسانية.

فنظراً إلى أهمية هذه المقالات وضرورتها في هذا العصر الذي تشتد فيه الحاجة إلى اختيار منهج التفاهم والحوار السلمي، قام بجمعها تلميذه النابغ وهو الأخ محمد وثيق الندوي في كتاب مستقل لتعم الفائدة، وتساعد المعنيين بالعمل الإسلامي، وخدمة الأمة والإنسانية على المستوى المحلي والعالمي، فأرجو من الله سبحانه وأدعو أن ينفع به الناس نفعاً كبيراً، فجزاه الله تعالى أحسن الجزاء وجعله نافعاً مباركاً.

وكتبه

محمد الرابع الحسني الندوي
رئيس ندوة العلماء العام بلكناؤ (الهند)
١٧/رجب/ ١٤٣٨هـ
١٤/أبريل/٢٠١٧م

الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي وشغفه بالقرآن الكريم

تتميز دار العلوم لندوة العلماء عن غيرها من المدارس الدينية المنتشرة في العالم، في الاهتمام بدراسة القرآن الكريم كمصدرٍ أوَّلٍ في الشريعة الإسلامية، وكلامٍ إلهيٍ معجزٍ، وقد تحدَّى القرآن الكريم العرب بأن يأتوا بمثله ولو آية، لكنهم عجزوا عن ذلك، وكان ردُّ الوليد بن المغيرة اعترافاً بكون القرآن كلاماً لا نظير له، فقال: "إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى عليه".

إن إعجاز القرآن الكريم إعجاز دائم، ففي عصر البيان الذي عرف بالعرب، كان إعجازه بيانياً، وفي عصر انتشار العلم والفلسفة كان إعجازه علمياً، وفي العصر الحديث التفت الباحثون إلى الإعجاز العلمي في القرآن، وبهذا الإعجاز العلمي قبل عدد من العلماء الإسلام، واعترفوا أن القرآن الكريم كلام إلهي.

وفي عصر البيان ألف عدد من الباحثين في الأدب ولغته وبلاغته كتباً في شرح لغات القرآن ومشكلات القرآن ومشتبهاته

ومحكماته.

ولا يفهم القرآن الكريم فضلاً عن التذوق بأسلوب بيانه إلا من أوتي ذوقاً أدبياً عالياً، وعلماً باللغة العربية، ومعرفة بذوق العرب وصلاحيتهم للبيان؛ كيف كان يتغير موقف الأعداء بمجرد سماع آية من القرآن الكريم، وله أمثلة كثيرة في السيرة النبوية.

وإدراكاً لهذا التنوع والسعة لدراسة القرآن الكريم وضع المسئولون عن ندوة العلماء القرآن الكريم ودراسة علومه في المنهج الدراسي، وجعلوا قسم التفسير والأدب قسماً كاملاً، وقد أشار الشيخ الندوي إلى اهتمام ندوة العلماء بدراسة القرآن الكريم ووضعها في منهجها في موضعٍ لائقٍ بدون التقليل من المواد التقليدية المتبعة في المدارس الأخرى، فقال:

" قد سبقت ندوة العلماء إلى تدريس متن القرآن الكريم، كمادة مستقلة، ومن غير ارتباط بكتاب خاصٍّ في التفسير، حتى يستوعب الطالب دراسة القرآن الكريم من أوله إلى آخره، تحت إشراف معلّم توفر على دراسة القرآن الكريم وتذوقه، ثم يدرس كتب التفسير القديمة المقررة في المنهج الدراسي في تفصيل وتحقيق، وقد كانت في ذلك فوائد ومزايا، لا تحصل بربط القرآن الكريم بكتب التفسير ربطاً وثيقاً نهائياً، لا يمكن تصور أحدهما إلا بالآخر، والانطلاق من حدود المنهج الرتيب إلى الجو القرآني الفسيح".(١)

---

١ - المدخل إلى الدراسات القرآنية، ص: ٣، المجمع الإسلامي العلمي، لكناؤ، الهند.

كان الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي عندما كان مدرساً في دار العلوم لندوة العلماء وأستاذ التفسير والأدب، كان منقطعاً إلى كلا الموضوعين، وقد ورث هذا الجمع بين الموضوعين من أستاذه الشيخ خليل عرب الذي كان الشيخ الندوي يذكره في مجالسه أنه عندما كان يتلو القرآن الكريم كان يقف عند الآيات آيات الإنذار وآيات التبشير وآيات وصف النعم في الجنة والأذى في جهنم، وآيات المغفرة وآيات غضب الله، فكانت الدموع تسيل من عينيه، ويردِّد هذه الآيات وخاصة في الصلاة كان وجهُه يتغيَّر لونُه، ولذلك أمثلة كثيرة. يقول الشيخ الندوي:.

"درس أستاذنا الشيخ خليل بن محمد بن الشيخ حسين بن محسن اليماني سورة "زمر" بتذوق واشتياق لترسيخ عقيدة التوحيد في القلب عند ما بدأتُ دراسة اللغة العربية عليه، وقد أودع الله عز وجل فيه ذوقاً فطرياً للأدب العربي وخاصة للشعر العربي قلما يوجد له نظير، وكان ينتسب إلى أسرة يمنية لهج لسان النبوة بالشهادة والخير لها، "الإيمان يمان" وقد ورث جمال الطبيعة العجمية من أخواله وحرقة القلب العربية من أعمامه، فكان كلما يتلو القرآن يبكي فيبكي المستمعين، وحينما كان ينشد القصائد كان يصور سوق عكاظ تصويراً حياً، وكان يتميز بتذوقه في التوحيد، ودرس هذا الموضوع فأحسن وأجاد وفتح القلب للتوحيد، ولم أزل أحتفظ بتلك النعمة منذ ذلك الحين وأشكر الله على هذه النعمة وقد نقشت آية "ألا لله الدين

الخالص" في القلب، وإن الحيل والدعاوي التي تقدمها فلسفة نظام الشرك من قديم مستمسكة بقول "وما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى" لا تزيد عن نسج العنكبوت" .(١)

كذلك ورث الشيخ الندوي هذا الذوق الأدبي والتذوق بالقرآن الكريم وبيانه من أستاذه العلامة السيد سليمان الندوي الذي كان له ذوق عال في الأدب العربي، وبيان القرآن الكريم، وقد سجل ملاحظاته وفهمه في هامش المصحف الذي كان يتلوه وقد جمعت هذه النكت في كتاب في توجيه نجله الدكتور سلمان الندوي.

وعلى أساس هذا التذوق والفهم الدقيق كان الشيخ الندوي يستشهد بآيات القرآن الكريم استشهاداً لم يلتفت إليه المتقدمون الذين كان موقفهم موقفاً تقليدياً، وقد سجل الشيخ الندوي تصوره عن دراسة القرآن الكريم فيقول:.

" إن لي تجربة عملية، واقتراحاً مخلصاً، في صدد الصلة الشخصية المباشرة بالقرآن الكريم، والعلاقة القوية معه، وتذوُّقه والتجاوُب معه، والاستفادة منه أكثر فأكثر، والتقرُّب به إلى الله، والرقي عن طريقه في مدارج التوفيق.

وهو أنه ينبغي أن يشتغل بالقرآن – قدر المستطاع – مباشرة بدون وساطة، ويتلى متنه أكثر ما يمكن، ويستمتع بقراءته، ويتذوَّق ويتدبَّر في معانيه، فإذا كان القارئ قد حصل من العربية ما يحتاج إليه،

---

١ – شخصيات وكتب للشيخ الندوي، ص: ١٩٥، كلية اللغة العربية وآدابها، ندوة العلماء بلكناؤ، الهند ١٩٨٥م.

وتمكن من فهم القرآن الكريم مباشرة، فعليه بقراءته وفهمه وتدبُّره وتذوُّقه من دون اعتماد وتعويل دائم على تفسير إنساني، ومراجعة كثيرة لكتب التفاسير، ويكتفي بذلك إلى مدة ما من الزمن، وما يوفق إليه من تلاوته، حمداً كثيراً.

يجتنب في ذلك – عدا مواضع الحاجة إلى البحث العلمي أو إزالة شبهة – البحوث التفصيلية الخاضعة للاتجاهات العصرية، أو العصبية الجماعية، السياسية أو القيادية، أو التفكير الناشئ من دراسة العلوم الحديثة أو الحضارة الغربية، إذ أنه تطغى – أحياناً – على ينبوع القرآن النقي الصافي، ظلال العقول والعلوم الإنسانية والأغراض الجماعية أو القيادية، كما تغشى على العين الصافية النقية ظلال الأشجار الكثيفة الوارفة، ثم لا تبقى فيه تلك العذوبة واللذة، والأصالة والشفافية التي هي جوهر القرآن وروحه.

بل لقد أثبتت التجارب أن القارئ يتأثر – أحياناً – بتفهم إنسان ألمعي فاضل وتفسيره – وقد يكون معجباً به من قلبه – أكثر مما كان ينبغي له أن يتأثر بالكلام الإلهي الأصيل، ويتسرَّب إلى ذهنه وشعوره أو من منفذ من المنافذ المختلفة، أنه لو لا هذا التفهُّم والتفسير لم يظهر هذا الجمال القرآني الذي أتمنّاه ولم تتجلَّ لي عظمته وجلاله وروعته، وأقل ما يتمكن من خاطره هو أنه يتعود على النظر إلى القرآن الكريم بمنظار تفسير إنساني خاص، أو قل بمنظار أحد المفسرين

والشراح أو القادة والدعاة". " (١)

كان الشيخ الندوي بعد دراسته عند الشيخ خليل عرب الذي غرس في ذهنه صلاحية التمييز بين الجمال وغير الجمال، وأقداره، والاهتمام بالكلام الجميل، قد درس التفسير عند الشيخ أحمد اللاهوري الذي كان درسُه للقرآن الكريم معروفاً في الأوساط العلمية، وحدث الشيخ الندوي قصة شغفه بعلوم القرآن، وقد بلغ هذا الشغف بدراسة القرآن أنه كان يكثر استشهاده بالقرآن الكريم في كتاباته وخطبه وحواره، ويتجلى ذلك لكل دارس لكتبه، ومن أتيحت له فرصة الاستماع إلى كلمته، وكان أحياناً عند الكتابة يتلو آيات من القرآن الكريم ويرددها حتى يستخرج موضوع كتابته من تلك الآيات.

وشاهدت بنفسي أنه كان يحضر اجتماعات، وهو خالي الذهن، وكان يركز في كلامه على الآيات القرآنية التي تليت في مفتتح الجلسة، ومرة طلب من مقرئ أن يتلو جزءاً من القرآن الكريم ثم ركز كلامه على هذه الآيات، وفي آخر أيام حياته كان يركز على الآيتين " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ " [البقرة: ٢٠٨].

ويستنبط من هذه الآيات أن الحياة كلها تابعة لتعليم الإسلام، وأن المسلم يجب أن يكون مسلماً في سائر شؤون حياته.

والآية الثانية: " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ

---

١ - المدخل إلى الدراسات القرآنية، ص: ١٧٧، المجمع الإسلامي العلمي، لكناؤ، الهند

فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ " [الأنفال : ٢٩].

فكان القرآن المصدر الأول لفكره سواء كان خطاباً أو كتاباً، ثم الحديث الشريف، ثم أقوال العلماء، ثم التاريخ. وكل من يدرس كتبه يلاحظ هذا الترتيب، ويتجلى هذا التركيز على استمداد فكره من القرآن الكريم في كتبه "تأملات في سورة الكهف" و "الأركان الأربعة "و" النبوة والأنبياء في ضوء القرآن الكريم" و"تأملات في القرآن الكريم" و" المدخل إلى الدراسات القرآنية" و"المنهج القرآني للدعوة".

نماذج من استشهاده بآيات القرآن الكريم

مفهوم الدعوة

يقول الشيخ الندوي وهو يستشهد بآية الدعوة :

" كان من إعجاز القرآن أنه لم يتعرض لأحكام تفصيلية في موضوع الدعوة، وإنما وكلها إلى العقل السليم، وإلى الذوق المستقيم، وإلى العقيدة الراسخة، والفكرة المتغلغلة في الأحشاء، ثم حاطها بسياج واسع، هو السياج الوحيد الذي يستطيع أن يحيط بالدعوة، وهو قوله تعالى: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ" [النحل : ١٢٥] تشعرون بمدى أبعاد الإطلاق الذي جاء في هذه الآية، وأبعاد التقيد الذي جاء فيها، فأطلق، وقال: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ"، ما حدد، وما عين شيئاً معيناً

خاصاً، فمثلاً تدعون الناس إلى الإيمان بالله وحده، وإلى العقيدة الصحيحة، وتحثون على الصلاة، تدعون إلى مكارم الأخلاق، وإلى الفضيلة، أو تدعون الناس إلى الشعور بكرامة الإنسانية، و"سَبِيلِ رَبِّكَ" يحوي كل شيء، إنه يمتد ويسع الآفاق، ليست هذه الآفاق فقط، إنها آفاق الأديان السماوية، وآفاق الحاجات البشرية، والحياة الإنسانية، فاستحضروا الإعجاز الكامل في قوله تعالى: "ادْعُ" وهو لا يختص بالخطابة، ولا يختص بالكتابة، ولا يختص بالوعظ والنصيحة، إنما قال: "ادْعُ"، والدعوة عامة تشمل هذه المعاني كلها، وهذه الأساليب كلها، ثم قال "إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ" وأي كلمة أوسع أفقاً، وأعظم إطلاقاً من قوله تعالى: "سَبِيلِ رَبِّكَ"؟!

إن الحكمة — الكلمة البليغة العربية التي جاءت في الآية — لا أعتقد أنها من الممكن ترجمتها أو نقلها إلى لغة أخرى، وكذلك "الْمَوْعِظَةِ" كلمة مطلقة، و"الْحَسَنَةِ" أيضاً كلمة مطلقة، وهنا جاء القرآن يحل هذه المشكلة، فأطلق وقيد، وأوجز وأعجز، فقال: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ" الآية.

وقد جاءت هذه الآية في سياق الآيات التي تتحدث عن أكبر داع من الأنبياء قبل الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وقال:

"إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ

وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ" [النحل: ١٢٠- ١٢٣].

ثم بعد ذلك يقول: "ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ" لهذه الآية صلة خاصة بدعوة سيدنا إبراهيم، هنالك خيط يربط بين سيدنا إبراهيم وبين أمر الدعوة، إن ورود هذه الآية في سياق الحديث عن سيدنا إبراهيم يدل على أن سيدنا إبراهيم كان آخذاً بهذا الطريق، ملتزماً لهذا الأدب، وكانت دعوته مؤسسة على الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن"[1].

استعراض الحياة في ضوء القرآن

ويقول الشيخ الندوي وهو يؤكد على استعراض الحياة في ضوء القرآن الكريم:

"إخواني! يجب أن نستعرض حياتنا في ضوء القرآن، يقول القرآن: " لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ " [الأنبياء: ١٠]، يعني فيه الحديث عنكم، فيه تصويركم، كان سيدنا الأحنف بن قيس رحمه الله — من أخص أصحاب سيدنا علي رضي الله عنه وسيد قومه —! مرة جالساً؛ إذا به يسمع إنساناً جالساً قريباً منه يقرأ القرآن، فإذا هو يقرأ: "لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ" [الأنبياء: ١٠]، فانتبه، كأنه كان نائماً، قال: "لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ

---

[1] - محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة للشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، ص: ٤٢٧/١، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ٢٠٠١م.

كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ" هل في القرآن حديث عني؟، عليٌّ بالمصحف! فحضر المصحف، فصار يقلب الصفحات، يفتحه من غير قصد، فإذا به يمر بقوم يقول الله تبارك وتعالى عنهم: "قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ" [المؤمنون: ١- ٤]، قال: اللهم لا أجد نفسي في هؤلاء! ومر بقوم يصفهم الله تبارك وتعالى، ويقول: "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا" [الفرقان: ٦٣] قال: اللهم لا أجد نفسي في هؤلاء، أنا أصغر من هؤلاء، ثم مر بقوم يقول الله تبارك وتعالى عنهم: "تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا" [السجدة: ١٦]، قال: اللهم إني لا أجد نفسي في هؤلاء! ثم قلب الصفحات، فإذا به يمر بقوم يصفهم الله تبارك وتعالى بصفات معاكسة، فيقول: "مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ" [المدثر: ٤٢- ٤٧]، قال: اللهم إني أعوذ بك من هؤلاء! ولكن أين أنا؟ أين صفتي؟، ويقلب الصفحات، ويقلب، حتى مرّ بقوله تعالى: "وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ" [التوبة: ١٠٢]، قال: اللهم إني ها هنا! اللهم إني ها هنا!

هكذا يجب أن نقرأ القرآن، ونستعرضه، ونستفسره،

ونستوضحه، ونستوحي منه واقع الحياة، ونبحث عن مكاننا في هذه المجموعة من صور الأمم، ومن صور المجتمعات البشرية والنماذج الإنسانية، — والقرآن مرآة وضيئة نرى فيها وجهنا فنمسح ما فيه من غبار ومن تراب ومن وصمات — ونعرف مواضع هذه الوصمات فنغسلها".(١)

الدخول في السلم كافة

ويقول الشيخ الندوي وهو يفسر الدخول في السلم كافة:

"أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" [البقرة: ٢٠٨- ٢٠٩].

إخواني وأصدقائي! تلوت عليكم آية من القرآن الكريم تشتمل على إنذار وتحذير، هل يتصور أحد أن يحارب الله ويعاديه، فما معنى هذا الإنذار والتحذير؟ فهل يقدر عبد من عباد الله على أن يحارب الله؟ ولكن القرآن الكريم قد استخدم كلمة تتضمن هذا المعنى، وهو ما تقشعر منه الجلود، وتتصكك لها الآذان، يقول الله — عز وجل — وهو خالق الكون، ومالك الملك، والقادر على الإطلاق، والذي أنعم فأجزل على عباده: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً" [البقرة: ٢٠٨] فإنه لا قبل لكم أن تحاربوه، وتبارزوه، وتعادوه.

---

١ - محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة للشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، ص: ٢٢٦، ٢٢٥ دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ٢٠٠١م.

يتبادر إلى الذهن في بادئ ذي بدء أن تستخدم كلمة "الإسلام" في موضع السلم، وهو "ادخلوا في الإسلام كافة" ولكنه أمرهم بالدخول في "السلم" كافة، وهي أن تكون المعاملة مع الله معاملة استسلام، وانقياد، وخضوع كامل، بجميع معاني هذه الكلمات، ومقتضياتها، ومضموناتها: العقائد، والعبادات، والسلوك الفردي والاجتماعي، وجوانب الحياة كلها، موافقة بما جاء بها سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم، من عند الله رب العالمين، ومطابقة للأوامر الإلهية، والأحكام الربانية، ولا تكونوا العلاقات مبنية على الموالاة لأعداء الله، والخضوع لأوامرهم.

إن كلمة الإسلام في اللغة العربية مشتقة من "السلم" ومعنى الإسلام هو الانقياد، والاستسلام، والتنازل عن كل شيء في حق الله تعالى، وأوامره، وتعاليمه عن الأهواء، والشهوات، وعن المصالح والأغراض، وعن الشعور بالتمييز بين المنافع والمضار، والاطراح على عتبة الأحكام الربانية بالانقياد التام والاستسلام الكامل.

أما معنى السلم، فهو الصلح، يقول الله عز وجل في موضع آخر: "وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا" [الأنفال: ٦١]، وجاء "أسالم من سالم، وأحارب من حارب" وقد استخدم القرآن الكريم في مواضع مختلفة كلمات تعبر عن الرعب، والجلال، والهيبة، وتنذر وتزلزل، يقول عن الربا:

"يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ

كُنتُم مُّؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ" [البقرة: ٢٧٨- ٢٧٩].([1])

ويقول في موضع آخر:.

" تتضمن هذه الآية التي تلوتها أمامكم إنذاراً شديداً وتحذيراً عنيفاً، ولا أدري هل تتاح لي فرصة أخرى للقاء بكم فأبين ما يلقي الله في قلبي عن هذه الآية "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً" [البقرة: ٢٠٨]، فإن كلمة "كافة" كلمة شاملة جامعة، أي استسلموا لأوامره كلها، برمتها، واستسلموا أنتم جميعاً كذلك له، فلا يمكن أن ينقاد أحدكم، ولا ينقاد الآخرون، أو أن يطيع أحدكم في بعض الأمور، ويعصيه في أمور أخرى، بل كلكم لنا، وكل مالكم لنا، فأطيعوني إطاعة كاملة، فتكون عقائدكم موافقة بما جاء به الله ورسوله موافقة تامة بدون أي انحراف، أو عدول، فليس لأحد الأمر في هذا الكون؟ ألا له الخلق والأمر، واعلموا أنه بيده الخلق والأمر، والصحة والمرض، وبيده الرزق، والقوة، وهو المعز، وهو المذل، وهو الرزاق، وهو الذي يؤتي الملك والقوة، والغنى، بيده الخير كله، وهو على كل شيء قدير، لاشريك له في خلقه وأمره، وفي ملكه، لا نبي ولا ولي، وهو القادر على الإطلاق، ولا يجرؤ على الشفاعة عنده أحد إلا بإذنه، وكذلك يجب أن تطيعوا الرسول صلى الله عليه وسلم طاعة كاملة، فالذين يطيعونه في أمور ويعصونه في أمور، فإنهم

---

[1] - محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة للشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، ص: ١٦٠- ٣/١٦١، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ٢٠٠١م.

ليسوا من المطيعين للرسول في نظر القرآن "وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ" [الأحزاب: ٣٦]، فإذا عرف بسند صحيح، وطريقة صحيحة معتمدة أنه قول رسول الله، وفيه رضاه، فلا خيار لأحد فيه، ولا حرية، ولا تردد فيه، إلا أن يطاع الرسول صلى الله عليه وسلم ويتبع قوله، ويؤخذ به، ويعض عليه بالنواجذ".(١)

ويقول:

" لا أريد أن أطيل عليكم، فينبغي أن ترتسم هذه الآية الكشريفة على ألواح قلوبكم: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" [البقرة: ٢٠٨- ٢٠٩] إن القرآن الكريم أتى بلفظ "خطوات" جمعاً، ما يشير إلى كثرتها، فتشمل الأمور الاعتقادية، والتعبدية، والأخلاقية، والثقافية، والسياسية، ولو كان مجتمعنا خالياً عن هذه الأمور لما وقع الفساد والفوضى الذي يقع في كثير من المجتمعات، لأنه لم يبق فرق بين الصالح وغير الصالح، وبين التدين وغير التدين، وبين أن ينهج المنهج الشرعي، وينهج المنهج غير الشرعي".(٢)

---

١ - محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة للشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، ص: ٣/١٦٤، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ٢٠٠١م.

٢ - محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة للشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، ص: ١٧١- ٣/١٧٢، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ٢٠٠١م.

لهو الحديث

ويقول الشيخ الندوي وهو يفسر لهو الحديث:

" يقول الله تعالى: "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ" [لقمان: ٦] يبدو أن القرآن ترك هذه الأسماء: الفيديو، والتلفزيون لأنه في لسان عربي مبين لا يمكن الإتيان بكلمة إنجليزية، لكن من الإعجاز القرآني العجيب أن الكتاب الذي نزل قبل أربعة عشر قرناً أشار إلى ما ينطبق على الجهاز المستعمل اليوم، ولو قلت: إنه يعني الفيديو، والتلفزيون؛ لما أخطأت، لأنه قال فيه "وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ" [لقمان: ٦]، فإن المتذوقين باللغة العربية وبلاغتها في كل بلد يتذوقون بـ"لهو الحديث"، إن الذوق الأدبي يسوق إلى آفاقها، وأبعادها، فإنه يصعب علي أن أترجم هذه الكلمة إلى اللغة الأردية بالضبط، رغم كوني من أبنائها وأصحابها، ما هي وظيفة الفيديو، والتلفزيون، وما يشغلهما؟ إذا كان أحد يعجبه اللغب يشتريه، فهل لا تدخل فيه هذه الأجهزة، الفيديو، والتلفزيون، التي قيل لها "لهو الحديث"، ولو ادعيت أن القرن الأول، والثاني إلى السابع والثامن، حتى لو قلت إن ذهن أكبر عالم في العصر الماضي لم ينتقل إليه؛ لما أخطأت.

وهذا من الإعجاز القرآني، ما هو "لهو الحديث"؟ هذه المسلسلات المرئية، والتصاوير الناطقة، والأصوات المسجلة كلها من "لهو الحديث" هل كان في استطاعة أحد أن يتصور قبل أربعة عشر قرناً

مثل هذا الجهاز حينما لم يحلم به أحد فضلاً عن اختراعه وإبداعه ولكن كتاب الله قد قال: إن هناك رجالاً يشترون "لهو الحديث" وهو اللهو الذي لا يحصل للإنسان، ولا يملكه إلا بالشراء، وبذل النقود".(١)

معنى التزكية وتعليم الكتاب والحكمة

ويقول الشيخ الندوي وهو يوضح معنى التزكية وتعليم الكتاب والحكمة:

"إخوتي الكرام! تلوت عليكم الآية الكريمة: "هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ" [الجمعة: ٢]، الآية تذكر تلك الأركان الأربعة التي بعث الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم لتحقيقها، وتكميلها، وقد توارثها القائمون بمهمة النبوة بعده صلى الله عليه وسلم... فالأول: هو تلاوة الكتاب (القرآن الكريم) وتشاهدون مظاهرها في كل حفلة، ولدى كل مناسبة، وعند كل صلاة وفي كل بيت ومدرسة، ومعهد للتعليم والتربية، وقد أقيمت لتحفيظ القرآن، ولتعليم تجويده، وترتيله، وقراءته مدارس لا تعد ولا تحصى، وستبقى هذه السلسلة المباركة الطيبة إلى يوم القيامة إن شاء الله تعالى " إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ" [الحجر: ٩] والثاني: هو تعليم الكتاب، والثالث: هو

---

١ - محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة للشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، ص: ١٦٩- ٣/١٧٠، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ٢٠٠١م.

تعليم الحكمة، والرابع: هو تزكية النفس.

والمراد من "الحكمة": الأخلاق الفاضلة، والآداب الإسلامية، لأن القرآن قد أطلق لفظ "الحكمة" على هذه الأخلاق، والآداب في مواضع شتى، ذكر في سورة "الإسراء" التعاليم الخلقية الأساسية في موضع واحد، يقول تعالى: "وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ

أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا" [الإسراء: ٢٣- ٣٨] تلك هي خمس عشرة آية، فيها النهي عن الشرك، والأمر بالإحسان إلى الوالدين، وخفض الجناح لهما، وإيتاء ذي القربى، والمسكين، وابن السبيل، والنهي عن التبذير، والأمر بالتلطف لهم بالقول، والنهي عن الإفراط والتفريط، والنهي عن قتل الأولاد، وعن الزنى، وعن قتل النفس إلا بحقها، وعن الإسراف في القصاص، والنهي عن أكل مال اليتيم إلا بالحق، والأمر بالإيفاء بالعهد، وإيفاء الكيل والميزان، والنهي عن التبختر، والمرح الزائد، وبعد ما انتهى من ذكر هذه التعاليم الخلقية التي تلتقي عليها الأديان والأمم، والفطر المستقيمة، والعقول السليمة، من أول العصر إلى آخره، ختمها بقوله: "ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ" [الإسراء: ٣٩].

وكذلك شأن القرآن في سورة لقمان، فلو قرأت قوله تعالى: "وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ

الْمَصِيرُ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ" [لقمان: ١٣- ١٩] وقرأت افتتاحية هذه الآيات، وهي قوله تعالى: "وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ" [لقمان: ١٢]، علمت أن كل ما صدر عن لقمان من التعاليم الخلقية، والوصايا الحكيمة إنما نبعت عن هذه الحكمة التي أكرم الله بها لقمان، وكذلك لو قرأت قوله سبحانه في سورة البقرة: "مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى

وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ" [البقرة: ٢٦١- ٢٦٩] علمت أن الحكمة في المصطلح القرآني الإلهي لها صلة عميقة وثيقة بالأخلاق.

والتزكية: هي تهذيب النفس، وتحليتها بالفضائل، وتخليتها من الرذائل، تخليتها من الحسد، والبغض، وحب الدنيا وحب الجاه،

والإخلاد إلى الأرض، وكراهية الموت، والحرص، والجشع، وتحليتها بحب الله، والإقبال على الآخرة، والرغبة في الجنة، وإيثار الآخرة على العاجلة، والطمع في رضا الله وثوابه، ومن وظيفة كل مدرسة إسلامية أو جامعة إسلامية، ومركز إسلامي للتعليم والثقافة أن تخرج رجالاً يقومون عن جدارة ومقدرة بالتلاوة، وبتعليم الكتاب، والحكمة، وبالتزكية: الأركان الأربعة والمقاصد الأولى التي كانت لها البعثة، ويخلفون الأنبياء في مهمة الدعوة، ولا يتم تعليم الكتاب، والحكمة، والتلاوة، ما لم يكن مقروناً بالتزكية والإحسان، أعني: أن العلماء لا يستطيعون أن يؤدوا دورهم المطلوب حتى يتخلصوا من عبادة النفس والهوى، والخضوع لدواعي النفس الأمارة بالسوء، وعادوا لا يحيد بهم أكبر كمية من الثراء، وأي نوع من العز والشرف، وأي جاه محسود، ومنصب مرموق عن مبادئهم، وأغراضهم، ودعوتهم، ومهمتهم، وعن أسلوب حياتهم الإسلامي، وعن مستواهم السامي(١).

إعجاز القرآن الكريم:

أكد الشيخ الندوي في كتابه" المدخل إلى الدراسات القرآنية " : أن القرآن ليس معجزاً في ألفاظه وتراكيبه، وفصاحته اللغوية وبلاغته المعنوية فحسب؛ بل إنه معجز في ألفاظه ومفرداته ومركباته، معجز

---

١ - محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة للشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، ص: ٢٢٨- ٣/٢٣٠، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ٢٠٠١م.

في معانيه ومحتوياته، معجز في علومه ومعارفه، معجز في غيبياته وحقائقه الأبدية، معجز في تعليماته الدينية والخلقية والاجتماعية والمدنية، معجز في تأثيره وإثارته، ومعجز في نبوءاته وأخباره، فإذا ظهر العجز من الإتيان بمثله في ألفاظه وتراكيبه فحسب، فكيف يا ترى بمماثلته في جميع وجوه إعجازه".

ويقول:

"إن البحث في القرآن الكريم عن حقائق العلم الحديث وكشوفه الحديثة والتطبيق بين بعض إشاراته الإجمالية وبين الكشوف الجديدة والتحقيقات الجاهزة — الذي قام به على نطاق واسع في هذا القرن العلامة طنطاوي جوهري المصري في تفسيره (جواهر القرآن)، ويسعى له باحثون في تحقيقاتهم العلمية — جهد شائك، ودقيق خطير، لأنه من الممكن جداً — وقد أيدت التجارب ذلك مرات وكرات في تاريخ العلم والبحث — أن تتغير نتائج هذه البحوث والمعارف — التي يراها الناس اليوم من أجلى البديهيات وأظهر الحقائق — رأساً على عقب، أو تصبح موضع شك وتردّد، وتفقد بداهتها وقطعيتها.

ثم إن هذا الجهد العلمي — الذي لا ينكر إخلاص القائمين عليه، وجديته وإفادته في بعض الأحيان — يبعد بالقرآن الكريم عن موضوعه الرئيسي وغايته الأساسية، وتشم من رائحة الخضوع للعلم الجديد، والانبهار بالكشوف العلمية الحديثة.

وقد أخطأ بعض المفسرين المتقدمين هذا الخطأ نفسه فيما يتعلق

بالفلسفة القديمة، والروايات التاريخية المشهورة، ولكن لما أن نصيب ذلك من تفاسير القرآن الكريم وثروتها الضخمة كان ضئيلاً قليلاً، ولم يجد قبولاً ولا رواجاً في أوساط المسلمين العلمية، لذلك لم يتعرض القرآن لمثل تلك المحنة التي تعرضت لها كتب العهد القديم بالزيادات والشروح والإلحاقات الفلكية والجغرافية والطبيعية والتي أسميت في العالم المسيحي في القرون الوسطى بالجغرافية المسيحية المقدسة.

ولكن الدارس المنصف من ذوي الفطرة السليمة – الذي لا يجمد جمود الجاهلين، لا يخضع لكشوف العلم خضوع المستسلمين المنبهرين – يدهش عندما يطلع على هذه الحقيقة العجيبة حقاً، وهي أن هذا الكتاب رغم كونه قد نزل على رسول أمي قبل أربعة عشر قرناً من الزمن في في البيئة العربية المحدودة المنعزلة عن دنيا العلم والمدنية احتوى على عدد من الحقائق التي تتعلق بالتاريخ والجغرافية والطبيعة والفلك والأجرام السماوية، وعلم الحياة والطب، وخلق الإنسان وتكوينه وتركيب أعضائه وغيرها من كثير من المعارف والعلوم التي انكشفت عنها في القرون الأخيرة معلومات وحقائق، وتغيرت أوضاع العلم البشري تغيراً جذرياً، وليس فيه ما أثبت العلم الحديث وكشوفه خلافه ومنافاته للواقع، بل قد وردت فيه حقائق ولفتات لم يكشف عنها العلم إلا قريباً ولم يبلغ إليها إلا بالأمس".[1]

---

[1] المدخل إلى الدراسات القرآنية، ص: ٤٣- ٤٥.

القرآن كتاب هداية ودعوة، قبل أن يكون كتاب أحكام وشريعة:

يقول الشيخ الندوي:.

"إن القرآن هو كتاب هداية ودعوة قبل أن يكون كتاب أحكام وشريعة – مع كل إجلالنا وتقديرنا للأحكام والشريعة – إن الأحكام والشريعة لا غنى عنها، ولكن القضية، قضية الأولية، قضية الطابع الغالب، وقضية الغاية التي يدور حولها القرآن، فأنا أعتقد – في ضوء دراستي القاصرة المحدودة – أن القرآن هو كتاب هداية ودعوة، قبل أن يكون كتاب أحكام وشريعة؛ لأن الهداية هي الأساس للإيمان، والدعوة هي الأساس لنقل هذا الإيمان، فإذا كان هذا هو الشأن، فلاشك في أن القرآن هو كتاب هداية ودعوة قبل أن يكون كتاب شيء آخر(١).

لماذا لم يترجم الشيخ الندوي معاني القرآن إلى الأردية؟

هناك سؤال لماذا لم يترجم الشيخ الندوي القرآن الكريم إلى اللغة الأردية كما فعل العلماء الآخرون، والجواب عليه فهمُه الوسيع وإدراكه لسعة ألفاظ القرآن الكريم بجنب صعوبة وضعها في قوالب صغيرة، وقد أدرك هذه الصعوبة في الترجمة الأستاذ عبد الماجد الدريابادي، فقال:.

" إن الكتاب - مهما كانت لغته - إذا كان في قمة عالية من جمال الأدب ونصاعة البيان وروعة البلاغة وسمو المعاني ، فلا يمكن

---

١ - محاضرات إسلامية في الفكر والدعوة للشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي، ص: ٤٢٦، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ٢٠٠١م.

ترجمته ونقله بروحه وخصائصه الفنية والأدبية إلى لغة أخرى، ويصعب هذا العمل ويتعسر على كل كاتب، بل إنه أمر يتطلب صبراً بالغاً وجهداً جهيداً، لأن لكل لغة بنية خاصة، وتراكيب خاصة، وهيئة مخصوصة لاستعمال الألفاظ ونظم الكلام، وصورة خاصة لقواعد النحو والصرف، وفوق كل ذلك أن كل لفظ يحتوي على مفاهيم ضمنية وإشارات غامضة، ودلالات مبهمة، كيف يمكن أن يترجم بعينه وأصله وروحه؟!.

إذا راعيت في الترجمة الالتزام اللغوي وأساليب الترجمة وطرقها والجمل والعبارات والتشبيهات والمحاورات فلا يستحق أن يسمى بالترجمة ؛ بل يجدر أن يقال إنه نقل اللغة بعينها أو يسمى التعبير على الأكثر.

وبالعكس من ذلك إن التزمت بوضع اللفظ مكان اللفظ الأصيل، واعتمدت كل الاعتماد على المعاجم والقواميس فتصبح العبارة مجرد عبارة خالية من الرشاقة والجزالة والجدة والابتكار والخصائص الأدبية، بل تكون مستكرهة وصعبة على نفسك.

وقد ترجمت قصائد الشاعر الأردي الميرزا غالب والدكتور محمد إقبال إلى اللغة الإنكليزية كما نقل كتاب كلستان سعدي، ومثنويات مولانا رومي إلى اللغة الإنجليزية والأردية كلتيهما بعد بذل جهد كبير وعناية بالغة ودقة ولكن لا يوجد تطابق في هذه الترجمات بين الأصل والنقل أدباً وذوقاً، فإذا كانت تلك الحال للكتب ذات

المستوى العالي التي ألفها الإنسان، فماذا تقول في الكتاب "القرآن الكريم" الذي يعتبر أعظم من كل كتاب وأعلى وأرفع من كل صحيفة، أ يمكن إنساناً أن يستوعب ما فيه من المحاسن الأدبية والخصائص الفنية واللطائف البلاغية والدقائق والحقائق العلمية والمعاني العظيمة السامية والإعجاز والإيجاز؟ كلا لا، بل يعجز عن أن يعارضه أويقاربه، فإن سائر كبار العلم والأدب والفكر والحكمة عاجزون عن نقل هذا الكتاب بعينه في لغتهم، فكلهم يعترفون بعجزهم وتقصيرهم وقصور علمهم في مكانٍ ما، وهم يقولون بلسان الحال: أين أنا وهذه نكهة الزهرة".(١)

---

١ - مقدمة تفسير القرآن الكريم بالأردية المعروف بـ "تفسير ماجدي"، المجمع الإسلامي العلمي، لكناء، الهند.٢٠١٣م.

الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي

وصلته بالحديث النبوي الشريف [١]

دراسة الحديث النبوي في الهند:

قد أتى حين من الدهر كان هذا الموضوع خاملاً في الهند لإقبال الدارسين للعلوم الإسلامية على الفقه والعلوم العقلية، أو اعتمادهم على كتب المتقدمين اعتماداً كاملاً من غير حاجة إلى الإضافة إلى بحوثهم، وتوسيع دائرة البحث والدراسة في الكتب التي ألفت خلال القرون الوسطى في الشرح أو بحث الموضوعات المتصلة بالحديث، كغريب الحديث، والجرح والتعديل.

وقد كانت مناهج التعليم في الهند إلى القرن التاسع تكتفي بقدر يسير من الحديث، والتركيز على العلوم العقلية والفقه وأصول الفقه، لأن ذلك العصر كان يحتاج إلى الإداريين والفقهاء ورجال الإفتاء، فراجت شروح المنطق، والفلسفة، وأصول الفقه، وعكف العلماء على التأليف في هذه الموضوعات.

---

[١] - قدم هذا المقال في الندوة العلمية العالمية التي عقدتها الجامعة الإسلامية بمظفرفور بأعظم جراه على موضوع "الحديث النبوي الشريف في الهند" في ٢١- ٢٢/ مارس عام ٢٠٠٧م.

يقول العلامة عبد الحيي الحسني عن وضع الحديث في الهند في ذلك العهد: "إن الفقه كان عمدة بضاعتهم ذلك اليوم (القرن التاسع) ولذلك كثرت فيهم الفتاوى والروايات، وكان قصارى نظرهم في الحديث مشارق الأنوار للصغاني"، فإن ترفع أحد إلى مصابيح السنة للبغوي ظنوا أنه وصل إلى درجة المحدثين".

"وفق بعض الناس للسفر إلى الحجاز، وأدركوا بها محدثين، فأخذوا عنهم الحديث، وجاؤوا إلى الهند كالشيخ محمد طاهر علي الفتني المتوفى عام ٩٨٦هـ، صاحب مجمع بحار الأنوار، وجاء الشيخ عبد الحق بن سيف الدين الدهلوي المتوفى عام ١٠٦٧هـ، وتصدى للتدريس والإفادة، ولكن انتشار هذا العلم يرجع إلى الشيخ أحمد بن عبد الرحيم المعروف بـ"ولي الله الدهلوي" المتوفى عام ١١٦٧هـ وأسرته، كما يرجع فضل نقل هذا العلم إلى الهند إلى الشيخ عبد الحق بن سيف الدين الدهلوي المتوفى عام ١٠٦٧هـ، وقد قرأ الشيخ ولي الله الدهلوي الحديث الشريف على الشيخ أبي طاهر المدني، وإن درس الصحاح الستة وتدريسها في الهند، يرجع فضله إلى أسرة الشيخ ولي الله الدهلوي بهذه الكتب".

ويصل نسب سائر المحدثين إلى الشيخ محمد إسحاق بن محمد أفضل العمري المتوفى سنة ١٢٦٢هـ سبط الشيخ عبد العزيز الدهلوي، يقول العلامة عبد الحيي الحسني في ترجمة الشيخ محمد إسحاق:

"وله تلاميذ أجلاء من أهل الهند كالشيخ عبد الغني بن أبي سعيد العمري الدهلوي المهاجر إلى المدينة المنورة، والسيد نذير حسين بن جواد علي الحسيني الدهلوي، وخلق آخرون، وأكثرهم نبغوا في الحديث، وأخذ عنهم ناس كثيرون، حتى لم يبق في الهند غير هذا السند، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء".(١)

وفي مدة قصيرة توجهت عناية العلماء في الهند إلى الحديث النبوي الشريف، ونبغ فيهم شراح الحديث، ونال هذا الموضوع الأهمية المركزية في المناهج الدراسية، ونالت كتب شرح الحديث في الهند القبول في البلدان الإسلامية كلها، حتى قال العلامة رشيد رضا منشئ مجلة "المنار" في مقدمة "مفتاح كنوز السنة": "لولا عناية إخواننا علماء الهند بعلوم الحديث في هذا العصر لقضي عليها بالزوال من أمصار الشرق، فقد ضعفت في مصر والشام والعراق والحجاز منذ القرن العاشر للهجرة"(٢).

نشأة الشيخ أبي الحسن الندوي:

نشأ الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي في أسرة وثيقة الصلة بأسرة الشيخ ولي الله الدهلوي، وكان الموضوع المحبب لديها الحديث النبوي الشريف، فقد تلمذ الشيخ قطب الهدى بن الشيخ محمد واضح على الشيخ عبد العزيز الدهلوي، وله حواش على الجامع الصحيح للبخاري، وسنن الترمذي، وقد أضاف الشيخ

١- الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، ٦٠/٧.
٢- المسلمون في الهند، للشيخ الندوي، ص: ٤٠.

الندوي بعض تعليقات على النسخة الخطية المحفوظة في مكتبة ندوة العلماء، من أمثلتها: "قوله صلى الله عليه وسلم: "لا تقبل صلاة بغير طهور" يقول: قال شيخنا المحدث: معناه لا تصح، والمراد بالقبول هاهنا وقوع الطاعة مجزئة رافعة لما في الذمة وهو معنى الصحة، وقد يطلق ويراد به ما يترتب عليه الثواب، انتهى، أبو الحسن علي بن أحمد عبد الحيي رحمه الله"، كما أخذ الشيخ إسحاق ابن عرفان المتوفى عام ١٢٣٤هـ سند الحديث من الشيخ عبد العزيز الدهلوي، وقرأ جد الشيخ الندوي الشيخ فخر الدين بن عبد العلي الحسني المتوفى عام ١٣٢٦هـ على الشيخ محمد نعيم بن عبد الحكيم الأنصاري المتوفى ١٣٨١هـ، مشكاة المصابيح وتفسير الجلالين، أما والد الشيخ الندوي العلامة الشريف عبد الحيي الحسني المتوفى عام ١٣٤١هـ فقرأ معظم كتب الحديث على الشيخ حسين بن محسن اليماني المتوفى سنة ١٣٧٢هـ، ثم أخذ الإجازة من الشيخ نذير حسين المتوفى سنة ١٣٢٠هـ، وعدد من المحدثين الآخرين.

ثم ا سترشد بالشيخ فضل رحمن الكنج مرادآبادي الذي كان تلميذ الشيخ عبد العزيز الدهلوي بواسطة واحدة.

كذلك أخذ الشيخ أبو الحسن علي الحسني على غرار والده من المدرستين: العلامة حيدر حسن خان التونكي الذي كان أخذ الحديث عن شيخ الإسلام حسين بن محسن الأنصاري الخزرجي السعدي، ثم شيخ الإسلام حسين أحمد المدني.

وقرأ أوائل الصحاح على المحدث الجليل العلامة عبد الرحمن المباركبوري صاحب تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي، وأجازه في الحديث، كما أجازه شيخه العلامة حيدر حسن خان الطوكي شيخ الحديث بدار العلوم لندوة العلماء.

نظرته إلى دراسة الحديث النبوي:

فكان الشيخ الندوي بهذا الجمع بين المدرستين معتدلاً في دراسة الحديث النبوي الشريف، ولذوقه الأدبي العالي كان موقفه إزاء الحديث النبوي الشريف كموقفه إزاء علم التفسير، موقفاً علمياً، ذوقياً، إنه لم يؤلف كتاباً في التفسير، ولا في الحديث، لكنه ألف كتباً في المبادئ والأصول، للدراسات القرآنية، ودراسة الحديث، ودرس التفسير، والحديث، مدة من الزمن، لكنه كان يركز على الجوانب التطبيقية، وتتصف بهذه الرؤية سائر مؤلفاته العلمية والدعوية، حتى الكتب الأدبية التي ألفها للأطفال أم الكبار، فإنها تعكس تذوقه بالقرآن والحديث النبوي الشريف، في البيان وفي المواد.

وإن تصوره للأدب الإسلامي يدور حول تذوقه للقرآن والحديث ويعكس اتصاله العميق بهذين المجالين، فهو أكبر داع إلى الاستفادة من القرآن والحديث في الأدب.

يقول في مقدمة كتابه "مختارات من أدب العرب":

"إن هذا الأدب الطبيعي الجميل القوي كثير وقديم في المكتبة العربية، بل هو أكبر سنا وأسبق زمناً من الأدب الصناعي، فقد دون

هذا الأدب في كتب الحديث والسيرة قبل أن يدون الأدب الصناعي، في كتب الرسائل والمقامات، ولكنه لم يحظ من دراسة الأدباء والباحثين وعنايتهم ما حظي به، مع أنه هو الأدب الذي تجلت فيه عبقرية اللغة العربية وأسرارها وبراعة أهل اللغة ولباقتهم، وهو مدرسة الأدب الأصيلة الأولى.

ونأخذ كتب الحديث والسيرة كمثال لهذا الأدب الطبعي – أولاً فنقول: إنها اشتملت على معجزات بيانية وقطع أدبية ساحرة، تخلو منها مكتبة الأدب العربي، على سعتها وغناها، وهو دليل على صحة اللغة ومرونتها، واقتدارها على التعبير الدقيق عن خواطر ومشاعرو وجدانيات وكيفيات نفسية عميقة دقيقة، ووصف بليغ مصور للحوادث الصغيرة، وهي الكتب التي حفظت لنا مناهج كلام العرب الأولين وأساليب بيانهم، ولئن صح ما قاله الرقاشي: "إن ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد المنظوم، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره"، فكتب الحديث النبوي تسد هذا الفراغ الواقع في تاريخ الأدب العربي، تنقل إلينا الذخر الأدبي الذي أعتقد أنه قد ضاع، وتمتاز أنها قد اتصل سندها وصحت روايتها فهي أوثق مصدر للغة العربية البليغة التي كانت سائدة في عهدها الذهبي الأول وللأدب العربي الذي كان منتشراً في جزيرة العرب.

إن هذه الكتب تشتمل على روايات قصيرة وطويلة وكلها أمثلة جميلة للغة العرب العرباء التي كانوا يتكلمون بها، ويعبرون فيها

عن ضمائرهم وخواطرهم، ويجد دارس الأدب العربي فيها من البلاغة العربية، والقدرة البيانية، والوصف الدقيق، والتعبير الرقيق، وعدم التكلف والصناعة ما يقف أمامه خاشعاً معترفاً للرواة بالبلاغة والتحري في صحة النقل والرواية، وللغة العربية بالسعة والجمال.

أما الروايات الطويلة فهي ثروة أدبية ذات قيمة فنية التي تجلت فيها بلاغة الراوي العربي، واقتداره على الوصف والتعبير والتصوير، وهي التي يطول فيها نفسه فيحكي حكاية يعبر فيها عن معان كثيرة، وأحاسيس دقيقة، ومناظر متنوعة، فلا يخذله اللسان، ولا يخونه البيان، ولا يتخلف عنه مداد اللغة، وكأنها لوحة فنية منسجمة متناسقة قد أبدع فيها الفنان، أو صورة متناسبة قد أحسن فيها المصور كل الإحسان".(١)

وكل من يدرس مؤلفاته لا يجد صعوبة في الوصول إلى نتيجة أن أكثر اعتماده في إثبات شيء أو إيضاح قضية بعد القرآن الكريم على الحديث ا لنبوي.

أما كتاباه "الأركان الأربعة" و"العقيدة والسلوك" فهما مليئان بأمثلة الدراسة العميقة للحديث النبوي الشريف، وبكثرة الاستشهاد به.

سعة دراسته لكتب الحديث النبوي:

وتدل على نظرته العميقة في الحديث النبوي مقدماته التي كتبها على كتب العلامة المحدث الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، وفيما

---

١ - مقدمة كتاب"مختارات من أدب العرب".

يلي مقتطفات من آرائه التي تدل على دراسته الواسعة لكتب الحديث، وشغفه بهذا الموضوع.

يوضح الشيخ الندوي أهمية الحديث في بحثه "دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته" فيقول:

"إن الحديث ميزان عادل يستطيع المصلحون في كل عصر أن يزنوا فيه أعمال هذه الأمة واتجاهاتها، ويعرفوا الانحراف الواقع في سير هذه الأمة، ولا يتأتى الاعتدال الكامل في الأخلاق والأعمال، إلا بالجمع بين القرآن والحديث الذي هو يملأ هذا الفراغ الذي وقع بانتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، وهذه الفجوة لابد منها في السنن الإلهية، "وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ" (آل عمران: ١٤٤)، "إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ" (الزمر: ٣٠)، فلولا الحديث الذي يمثل هذه الحياة المعتدلة الكاملة المتزنة، ولولا التوجيهات النبوية الحكيمة، ولولا هذه الأحكام التي أخذ بها الرسول المجتمع الإسلامي، لوقعت هذه الأمة في إفراط وتفريط، واختل الاتزان، وفقد المثال العلمي الذي حث الله على الاقتداء به بقوله: "لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ" (الأحزاب: ٢١)، وبقوله: "قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ" (آل عمران: ٣١)، والذي يطلبه الإنسان ويستمد منه الثقة والقوة في الحياة ويقتنع بأن تطبيق الأحكام الدينية على الحياة ميسور وواقع.

ثم إن الحديث زاخر بالحياة والقوة والتأثير الذي لم يزل يبعث على الإصلاح والتجديد، ولم يزل باعثاً على محاربة الفساد والبدع، وحسبة المجتمع، ولم يزل يظهر بتأثيره في كل عصر وبلد من رفع راية الإصلاح والتجديد، وحارب البدع والخرافات، والعادات الجاهلية، ودعا إلى الدين الخالص والإسلام الصحيح، لذلك كله كان الحديث من حاجات هذه الأمة الأساسية، تلقى منه المصلحون في عصورهم العلم الديني الصحيح، والفكر الإسلامي النقي، واحتجوا بأحاديثه واستندوا إليها في دعوتهم إلى الدين والإصلاح، وفي محاربتهم للبدع والفتن والفساد، ولا يستغني عن هذا المصدر كل من يريد إرجاع المسلمين في عصره إلى الدين الخالص، والإسلام الكامل، ويريد أن يوجد صلة بينهم وبين الحياة النبوية، والأسوة الكاملة، وكل من تلجئه الحجة وتطورات العصر إلى استنباط الأحكام الجديدة"[1].

شغفه الزائد بالحديث النبوي:

كان الحديث الشريف الموضوع الحبيب الثاني لدى الشيخ الندوي بعد القرآن الكريم، فقد عين أستاذ التفسير والأدب في دار العلوم لندوة العلماء، لكنه قام بتدريس الصحيح للبخاري مدة من الزمن، وكان له منهج خاص للتدريس، وهو منهج شيخه العلامة حيدر حسن خان الطوكي، وكان منهجه في تدريس الحديث الشريف منهجاً علمياً، هو أشبه بمنهج المحدثين منه بمنهج الفقهاء، يذكر

---

[1] - نظرات في الحديث للشيخ الندوي، ص:٢٣- ٢٥، دار ابن كثير، بيروت.

المذاهب، ويذكر أدلتها وما يحتج به أصحابها من الحديث، ولا يقصر في ذلك، ثم يحاكم فيها محاكمة مبنية على علم الأصول والرجال، أكثر من الدلائل المنطقية والتعليلات العقلية، وكان طريقه في ذلك طريق العلامة محمد بن علي الشوكاني في "نيل الأوطار"، وكان من أشياخ أشياخه، وكان مؤثراً لكتب علماء اليمن كالعلامة السيد محمد بن إبراهيم الوزير، والأمير محمد بن إسماعيل الصنعاني، والعلامة المقبلي، وغيرهم.

وكان الشيخ الندوي إلى آخر عمره يطالع كتب الحديث، وخاصة الصحيح للبخاري، وفي آخر أيام حياته كان من مطالعته اليومية أن يسمع صفحات منه من تلاميذه، وله مقدمات قيمة على كتب الحديث وشروحه وخاصة الكتب التي ألفها المحدث الكبير الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي، والكتب التي أشرف الشيخ الكاندهلوي على طبعها، كأوجز المسالك، وبذل المجهود، والكوكب الدري، ولامع الدراري، وتكملة فتح الملهم للشيخ محمد تقي العثماني، وكتاب الشيخ محمد تقي الدين الندوي في تراجم المحدثين العظام، وكل مقدمة تحمل أهمية خاصة لتناولها موضوعاً مهماً، من مواضيع الحديث، وتلقي الضوء على أهمية الكتاب، وصاحب الكتاب، وتاريخ تدوين الحديث والقضايا التي أثارها المستشرقون ضد تدوين الحديث، وروايته، وتستحق هذه المقدمات أن تعتبر فصلاً مهماً من فصول علم الحديث وتاريخه.

موقفه من دراسة الحديث النبوي:

أما كتابه "دور الحديث في تكوين المناخ الإسلامي وصيانته" فهو ككتابه "النبوة والأنبياء في ضوء القرآن" يلقي الضوء على أهمية الحديث في حياة المسلم، وهو رد مقنع لمنكري الحديث، وقد أصبح إنكار الحديث فتنة كبرى من فتن هذا العصر كفتنة إنكار ختم النبوة، أو النبوة والوحي مطلقاً.

وقد بين الشيخ الندوي في كتابه "المدخل إلى دراسات الحديث النبوي الشريف" الذي يدل على دراسته الواسعة للموضوع وبصيرته ودقة نظره، بعد عرض كتب الحديث المعروفة والتعريف بها، وإلقاء الضوء على محاولات المشككين في الحديث، المبادئ والأصول لدراسة الحديث وتدريسه، والمقصود من دراسته، وقد نصح في آخره المدرسين للحديث الشريف، أن يحترزوا عن الاستخفاف بالمذاهب الفقهية التي تختلف عن مذهب المدرس، فيقول:

"يحترز بقدر الإمكان عن الهجوم بعنف وقسوة، على مذهب من المذاهب الفقهية، المعمول به من قديم الزمان، والمؤسس على استخراج الأحكام، واستنباط الآراء، والقضايا من الكتاب والسنة، — على اختلاف في الاجتهاد والمعايير — بحسن النية والإخلاص، والورع والتقوى، وإجلال الكتاب والسنة، وإحلالهما المحل الأول، وما كتب الله له من الشيوع والانتشار، والقبول والإقبال، فيكون ذلك الجهاد في غير جهاد، ونضالاً في غير عدو، وليس معنى ذلك المنع من

الدراسة المقارنة وعرض المذاهب الفقهية على الحديث، والبحث عن دليلها ومؤيداتها في دواوين السنة وكتب الحديث المعتمد عليها، كما فعل عدد من كبار العلماء في القديم، إنما المقصود التجنب من القيام بحركة شعبية متحمسة، ودعاية سياسية، وحزبية قوية، ضد المذاهب الفقهية المعمول بها في الجماهير، المطابقة للكتاب والسنة مبدئياً، لأنها تحدث رد فعل وحركة مقاومة ليست في صالح الأمة في عصر وبيئة كثرت فيها التحديات والهجمات والأخطار والمؤامرات ضد الوجود الإسلامي، وشرائع الإسلام، ومشخصاته.

وبدلاً من ذلك تركز كل عناية وكل ما أنعم الله به من دراسة للكتاب والسنة، والاستدلال بالقرآن والحديث، وكل ما أنعم الله به من قدرة بيانية، ومقدرة خطابية، واستدلالية، على الرد على أنواع الشرك والبدع ومظاهرهما الفاشية بصفة خاصة في بلاد، دخل فيها الإسلام عن طريق الفاتحين العجم، المغمورة بأكثرية غير إسلامية، خاضعة لتقاليدها وعقائدها وعاداتها، والتي طالت الفترة فيها — أحياناً كثيرة — على دراسة الحديث الشريف وإشاعته ونشره، وتفهيم القرآن الكريم، واطلاع على تعليماته عن طريق اللغات الإقليمية والمحلية، كما كان شأن الهند.

وليكونوا في ذلك مقتفين لمناهج الإمام أحمد بن عبد الرحيم ولي الله الدهلوي، وأبنائه وخلفائه، خصوصاً الإمام السيد أحمد بن

عرفان الشهيد، وصاحبه الإمام الشيخ إسماعيل بن عبد الغني بن ولي الله الدهلوي وأصحابهما".

استناده في كلامه إلى الحديث النبوي

كان الحديث بذلك الموضوع الرئيسي للشيخ الندوي؛ فإنه في تآليفه وخطبه ومحاضراته ومجالسه العامة يستند إلى الحديث كاستناده إلى القرآن الكريم، وكان من عادته أن يدرس أوائل الجامع الصحيح كل عام أمام المتخرجين من ندوة العلماء ويجيزهم.

يقول الشيخ الندوي في كلمته لتقديم مقدمة لامع الدراري على جامع البخاري لبقية السلف للشيخ محمد زكريا الكاندهلوي.

"لا نعرف كتاباً من كتب البشر – في المكتبة الدينية العالمية – تناوله العلماء والمؤلفون بالشرح والتحشية والتعليق مثل ما تناولوا كتاب هذا الإمام الجليل الذي هو أصح الكتب بعد كتاب الله، وقد كان الشرح والتعليق هو المجال العلمي الذي تظهر فيه عناية العلماء والمؤلفين في العصور القديمة، ومقياس اهتمامهم بأثر علمي، فكان أكثر الكتب شروحاً وتعليقات؛ هو أعظم المؤلفات تقديراً، وأعلاها منزلة، وأكثرها شهرة، وكان أقل الكتب شروحاً وتعليقاً، أخملها ذكراً، وأقعدها شهرة، وصيتاً، فيبقى مطموراً مغموراً لا يسترعي انتباهاً، ولا يثير اهتماماً، فإذا أخذ هذا المقياس – وهو المقياس الوحيد لنجاح كتاب في عهدنا العلمي الماضي، والدليل القاطع على احتلاله للصدارة في المجلس العلمي – حكمنا بأن الجامع الصحيح للبخاري قد

فاز بالقدح المعلى في هذا الميدان، واحتل الصدارة في مكتبتنا الإسلامية، التي انبثقت عن القرآن ودعوة الإسلام، وامتدت على مشارق الأرض ومغاربها، في المساحة الأرضية المكانية، وعلى القرن الأول إلى القرن الثالث عشر – على الأقل – في مساحتها التاريخية الزمانية، فقد بلغ عدد شروحه والتعليقات عليه إلى مئة وواحد وثلاثين كتاباً (١٣١) على حسب استقراء مؤلف هذه المقدمة، وعلمه واطلاعه، وقد يكون العدد أكثر من هذا، فقد كان هذا الاستقصاء مؤسساً على "كشف الظنون للجلبي"، و"مفتاح السعادة، لطاش كبري زاده، و"إتحاف النبلاء"، و"الديباج المذهب"، و"نيل الابتهاج"، ومقدمات الشروح المشهورة التي كانت في متناول يده، و"الثقافة الإسلامية في الهند"، وبعض دراساته وتتبعاته الفردية، ولاشك أن العالم الإسلامي أوسع مما تخيله الجغرافيون والتاريخ الإسلامي العلمي أغنى مما دونه المؤرخون، وفي الزوايا خبايا لم تقع عليها عين، ولم تطلع عليها الشمس.

وإن كتاب "فتح الباري" للعلامة ابن حجر العسقلاني الذي يقع في ثلاثة عشر مجلداً ضخماً، ومقدمة مبسوطة تكاد تكون مكتبة مستقلة في علوم الحديث، كتاب لا يوجد له نظير في مكتبات الديانات والملل، وإن لهذه الأمة الإسلامية أن تفتخر بهذا الأثر العلمي الخالد، وتقدمه إلى علماء الديانات والفلسفات ورواد الحضارات والثقافات، كبرهان ساطع على جهاد هذه الأمة العلمي ونبوغها الفكري،

وولوعها بآثار نبيها، والغوص فيها إلى أعماق ليست بعدها أعماق، والوصول فيها إلى آفاق ليست وراءها آفاق، هذا مع عدم الحط من قيمة الشروح الأخرى — وفي مقدمتها عمدة القاري للعلامة بدر الدين العيني التي هي مكتبة حافلة في النحو والعربية، وعلوم البلاغة، والأحكام المستخرجة، والفوائد المستنبطة من الأحاديث — ومع الاعتراف بإخلاص مؤلفيها ونصحهم لله ولرسوله، وللمؤمنين، وإفراغ وسعهم في خدمة الحديث ونشره والتعمق فيه إلى غاية لا يتصور فوقها، جزاهم الله عن الإسلام والمسلمين أفضل الجزاء.

ثم يلي هذا المقياس، شدة دراسة الكتاب والتهافت على روايته ونقله والتنافس في حمله ونشره وضمه إلى الصدور والعض عليه بالنواجذ، وتوارث الأجيال في تلقيه جيلاً بعد جيل، وكابراً عن كابر، وتلميذاً عن أستاذ، وطبقة عن طبقة، حتى لا تعرف فترة من الزمان، نسج فيها عليه العنكبوت، وساد عليه الظلام، وانقطعت روايته، وتوقفت دراسته، وعبث به العابثون، وتصرف فيه الخائنون المحرفون، وقد تفرد الجامع الصحيح بهذه الميزة بعد كتاب الله، فقد أخذ هذا الكتاب عن مؤلفه تسعون ألفاً من الرواة والحفاظ، وتسلسل نقله وروايته، حتى انتهى هذا الكتاب إلى مؤلفه، وبلغ حد التواتر في شهرته، وصحة نقله، ونسبته إلى مؤلفه، لا ينكر ذلك ولا يشكك فيه إلاّ من تشكك في المتواترات والحقائق العلمية التي تثبت بالضرورة،

ولا يزال هذا الكتاب موضع الاهتمام والعناية وموضوع التأمل والدراسة في الحلقات العلمية في العالم الإسلامي.

وقد كان نصيب الهند — للأسباب التي بسطنا بعضها في مقدمتنا لمقدمة "أوجز المسالك" — أوفر في التمسك بهذا الكتاب والعكوف عليه درساً وتدريساً من كل بلد إسلامي في العصر الأخير، فإنه لا يزال في قمة الكتب الحديثية التي تدرس في المدارس الدينية، يقرأ من أوله إلى آخره في آخر سني الدراسة، وقد أصبح شعاراً لنبوغ الأستاذ ورسوخه في علوم الحديث والأثر، واقتداره على صناعة التدريس، والتفهيم، يتجلى فيه امتياز معلم عن معلم وتفوق أستاذ على أستاذ، وأصبح شرطاً لكمال الطالب واجتهاده وفوزه ونجاحه، فلا يعتبر عالماً إلا إذا قرأ هذا الكتاب بدقة وإمعان وجهد وإتقان، ولا تزال ختمات البخاري لتفريج الكرب وإزالة ما نزل بالمسلمين عادة منتشرة وتقليداً متبعاً في أنحاء العالم الإسلامي.

وهذا كله دليل اعتناء الأمة بهذا الكتاب، وما حازه من قبول عند الله وعند الناس.

ثم خص هذا الكتاب بالإطباق على أنه قد بلغ أقصى درجات الصحة والوثاقة والتحري، في نقل الصحيح الثابت، والاحتياط الذي يبلغ إليه اجتهاد المجتهدين، وأمانة النقلة والرواة، وأن المؤلف قد أفرغ فيه جهده ونجح فيه نجاحاً لم يكتب لمحدث آخر، وراعى فيه أدق الشروط التي عرفت في هذا الفن، والتزم فيه التزامات لم تعرف عن

أي مؤلف في هذا الموضوع، ثم ساعدته في ذلك الملكة الراسخة التي لا يرزقها إلا واضعوا الفنون والصيارفة الحذاق وأهل السليقة الذين لا يعرفهم التاريخ إلا في فترات طويلة وعلى مر القرون والأعصار، وهم في كل لغة وأدب، وكل موضوع ومقصد، ويجعلهم الله ميزاناً في هذه الفنون وحجة في هذه المقاصد، فيرزقهم من ثقوب النظر، وصحة الحدس، وسرعة الخاطر، ودقة الشعور، وسلامة الفكر، والذوق السليم الذي لا يخطئ ما لا يرزقه أقرانهم ونظراؤهم، — على جلالة قدرهم وغزارة علمهم — فيأتون في هذه الفنون والمقاصد من الحكم الصحيح السريع والوصول إلى الحقيقة والاهتداء إلى الصميم بما يشبه الإلهام، وبما يخيل إلى كثير من الناس بأنه فوق الطاقة البشرية، وما هو بإلهام دائماً، وما هو فوق الطاقة البشرية، لكنه الملكة الراسخة والموهبة الربانية والتوفيق الإلهي وطول الممارسة وشدة الإخلاص.

ونظائر ذلك كثيرة في الأدب والشعر، واللغة والنحو، وعلم العروض والطب، وأولئك الأئمة لا يخضعون للقواعد التي وضعها من كان في طبقاتهم أو دونهم، ودونتها كتب هذا الفن، وجاء فيها الغث والسمين، واختلط فيها الحابل بالنابل، فقد يتحرون عن هذه القواعد وعن هذه الآراء والمقاييس، ويحكمون بسليقتهم وبصيرتهم وذوقهم وتجربتهم.

ومن الظلم والجهل بالحقيقة والتسرع في الحكم والتقليد الأعمى أن يخضعوا لهذه القواعد المرسومة المحدودة التي جاءت في

كتب من تأخر زمانه عن زمانهم وانحط مكانه عن مكانهم فيؤخذ "تهذيب الكمال" للمزي، مثلاً أو مختصراته للحافظ ابن حجر، أو "ميزان الاعتدال" للذهبي – على فضل هذه الكتب وفضل مؤلفيها على المشتغلين بهذا العلم – فيحكم على الجامع الصحيح لمسلم أو الموطأ للإمام مالك، فيعاد الأمر جذعاً ويستأنف النظر في هذه الكتب التي تلقتها الأمة بالقبول، وبلغ أصحابها إلى أقصى درجات في التحقيق والدقة والتحري، وتشرح تشريح الأجسام، وتسلط عليها المقاييس المحدودة التي تقبل النقاش ويتسع فيها مجال الكلام، فهذا النوع من القسوة العلمية والجفاف الفكري، والعمل التقليدي فيحدث فوضى تتزلزل بها أركان الدين، وتتضعضع بها العقيدة واليقين، ويتورط المسلمون في اضطراب قد أغناهم الله عنه وكفاهم شره.

ولذلك كان حذاق المحدثين وعلماء أسماء الرجال يعتمدون في ذلك على "البخاري" و"مسلم" أكثر مما كانوا يعتمدون على كتب أسماء الرجال التي دونت في العصور المتأخرة، ويعجبني في ذلك ما نقله صاحب المقدمة عن الشيخ أبي الحسن المقدسي كان يقول في الرجل الذي يخرج عنه في الصحيح: "هذا حاز القنطرة" يعني بذلك أنه لا يلتفت إلى ما قيل فيه، وقال الشيخ أبو الفتح القشيري: "هكذا نعتقد وبه نقول ولا نخرج عنه إلا لحجة ظاهرة وبيان شاف يزيد في غلبة الظن على المعنى الذي قدمناه من اتفاق الناس بعد الشيخين على تسمية كتابيهما بـ"الصحيحين" ومن لوازم ذلك تعديل رواتهما ويؤيده

ما قاله الحافظ ابن حجر: (كما نقل عنه صاحب المقدمة): وقبل الخوض فيه ينبغي لكل منصف أن يعلم أن تخريج صاحب الصحيح لأي راو كان مقتضياً لعدالته عنده وصحة ضبطه وعدم غفلته، ولا سيما ما انضاف إلى ذلك من إطباق جمهور الأمة على تسمية الكتابين بالصحيحين وهذا معنى لم يحصل لغير من خرج عنه في الصحيح فهو بمثابة إطباق الجمهور على تعديل من ذكر فيهما"[١].

قصة شغفه بالحديث الشريف:

وقد حكى الشيخ الندوي قصة شغفه بالحديث الشريف، في مقال له نشر في مجلة "الصبح الصادق" الأردية في نوفمبر عام ١٩٥٦م، ويدل هذا المقال على أن شغفه بالحديث بدأ منذ طفولته فيقول:

"بدأ شغفي بالحديث النبوي الشريف منذ أن كنت أتلقى العلم عند أستاذي الجليل الشيخ خليل بن محمد عرب، إنه كان يحث على دراسة الحديث النبوي الشريف بجانب تعلم الأدب واللغة والعربية، وكان من كتب الحديث المفضلة لديه كتاب الجهاد من صحيح مسلم.

ثم طالعت كتاب "الترغيب والترهيب" للحافظ المنذري عندما تركت الدراسة المنتظمة مدة، وانقطعت إلى الدراسة الحرة والقيام بعمل الدعوة والإصلاح والإرشاد في قريتي، كنت أقرؤه على جمع من الناس كل يوم، وخلف هذا الكتاب في نفسي أثراً عميقاً، ثم نما هذا الشغف باتصالي بالمحدث الجليل الشيخ حليم عطا، وكانت له

---

[١] - نظرات في الحديث، للشيخ الندوي، ص: ٥٥- ٦٣.

مكتبة زاخرة، فتصفحت الكتب، وثارت فيَّ رغبة في دراسة بعض الكتب للمحدثين العظام وكان في مقدمتهم العلامة ابن الجوزي والحافظ ابن رجب الحنبلي، ومن الكتب التي زادتني ولوعاً وشغفاً بدراسة الحديث النبوي كتاب "قيام الليل" للشيخ محمد بن نصر المروزي تلميذ الإمام أحمد بن حنبل، وأعده في الكتب التي أثرت فيَّ تأثيراً عميقاً، وأعتقد أن الكتب المشتملة على الوقائع المؤثرة والروايات الصحيحة الشيقة التي تنشئ ذوق العبادة والحب لاتباع أوامر الدين في دارسيها أيام الشباب هي بمثابة مرشد ومعلم.

ثم التحقت بدار العلوم لندوة العلماء كطالب منتظم، فأخذت الحديث الشريف عن المحدث الكبير الشيخ حيدر حسن خان الطوكي الذي كان تلميذاً لشيخه العلامة رأس المحدثين شيخ الإسلام حسين بن محسن الأنصاري اليماني الخزرجي السعدي، وكان له منهج خاص في تدريس الحديث الشريف، كان منهجه علمياً، ومن مميزات منهجه أنه كان يكلف الطلبة أن يطالعوا كتب علم الحديث الشريف وكتب أسماء الرجال وكتب علم الجرح والتعديل مباشرة، وكان يؤثر دائماً للدرس مكاناً تتوفر فيه مكتبة زاخرة للكتب، وكان في أثناء الدرس يأمر الطلبة بالبحث عن قضية في الكتب، فتنتشر حوله الكتب، ويراجع الطلبة الكتب ويبحثون فيها مباشرة وهو يراقبهم، فكان هذا المنهج يوسع ثقافة الطلبة ويساعدهم على معرفة مظان الحديث ومصادره ومراجعه، ويفتح أمامهم آفاقاً جديدة للعلم والمعرفة، والدراسة،

وينشئ فيهم ملكة البحث والتحقيق، والتذوق بالحديث الشريف، فأعجبت بأسلوب تدريسه إعجاباً شديداً، واستفدت بعلومه ومعارفه، وهو الذي أنشأ فيَّ ملكة التذوق بالحديث الشريف، واخترت منهجه في دراساتي للحديث الشريف، وممن تخرجوا عليه في الحديث الشريف الشيخ عبد الرشيد النعماني.

واستمرت دراستي للحديث النبوي سنتين بشوق ورغبة، ومن أبواب الحديث التي شغفت بها وأثرت في تكويني الخلقي وشحنت بطارية قلبي، أبواب الزهد والرقاق من كتاب الترمذي، وكتاب الأدعية من سنن أبي داود، وإن هذه الأبواب بالإضافة إلى كتاب الإيمان والعلم تلعب دوراً مؤثراً ومهماً في بناء الشخصية، وتقويم الخلق، وتكوين المناخ الإسلامي المثالي الفاضل، إنها أكبر مدد وأقوى وسيلة إلى التزكية والإصلاح، والتعليم والتربية، والإنابة والانقطاع إلى الله، ونشر الفضائل والآداب الإسلامية الرائعة.

ومن الكتب القيمة التي تتضمنها مكتبة بيتي كتاب "زاد المعاد" للعلامة ابن القيم، وكان شقيقي الأكبر السيد عبد العلي الحسني يرغبني في مطالعته، فطالعته مراراً واستفدت به استفادة كبيرة، وبلغ الشغف به مني مبلغاً عظيماً، فكنت أصطحبه معي في الحل والترحال، وهو أيضاً من الكتب المفضلة لدي، والتي أثرت في تكويني الخلقي والعلمي والفكري، وأنصح طلبة العلم والراغبين في الإصلاح والتربية، والإرشاد، بدراسة هذا الكتاب والاستفادة به، وكان في نيتي

أن أقوم بتحقيق هذا الكتاب ومراجعته وتقسيمه إلى ثلاثة أجزاء، جزء الوقائع والسيرة النبوية، وجزء الآداب والسنن، وجزء الأحكام والمسائل، ولكن لم تحقق أمنيتي هذه، ولو قام أحد بإنجاز هذا العمل العظيم لأفاد عشاق العلم والراغبين في الإصلاح والإرشاد والتربية.

وأوصي في الختام الدارسين للحديث والراسخين فيه بالتركيز على إبراز جوانبه التي تتعلق بالإيمان والعقيدة، والأخلاق، والسلوك، ومحاسبة النفس وتزكيتها، والمعاملات، والعواطف والرغبات، والميول والأذواق، والأواصر والعلاقات، بصرف النظر عن المسائل الخلافية، لأنها من مقاصد بعثة الأنبياء والرسل، يقول الله عز وجل: "هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ" (الجمعة: ٢)، وإن الأحاديث النبوية الشريفة مشحونة بالحوافز والدوافع الطبيعية، والكيفيات العملية، وروح العبادة الخالصة، والمشاعر اللطيفة والأحاسيس الرقيقة، ودقائق مكارم الأخلاق، ومن خير الكتب وأنفعها بهذا الصدد كتاب "رياض الصالحين" للإمام النووي، فلابد نظراً إلى جوانبه الخلقية والتربوية من إدخاله في مناهج التعليم في المدارس الإسلامية، فإن الفضائل والآداب والتعليمات التي تحتوي عليها الأحاديث النبوية الشريفة تساعد في إثارة العواطف وإشعال الشوق، وإيقاد جمرة الذوق، وبعث الروح، وشحن بطارية القلب وشحذ

العقول والأذهان، وإعطاء قوة التماسك والاستقامة، وإيجاد مجتمع صالح تسرى فيه روح العبادة والتقوى، والخشية والإنابة إلى الله".

هذه قصة حكاها الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي لشغفه بالحديث الشريف منذ طفولته واشتغاله به، وتدل هذه القصة على أن الحديث النبوي الشريف كان الموضوع المحبب إليه، واستمر هذا الشغف طول حياته، وازداد هذا الشغف بصلته المتنامية مع بقية السلف شيخ المحدثين الشيخ محمد زكريا الكاندهلوي الذي أدرك هذه الميزة للشيخ الندوي، فكان يطلب منه لدى صدور أي كتاب في الحديث له، أو لشيخه الشيخ خليل أحمد السهارنبوري، أن يكتب مقدمة بقلمه، وكل مقدمة كتبها الشيخ الندوي تدل على دراسته العميقة للموضوع، ويبدو كأنه يجد لذة في الكتابة في الموضوع.

هذه بعض لمحات من صلة الشيخ الندوي بالحديث النبوي الشريف.

الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي وعناصر تكوين ذوقه الأدبي

درس الباحثون في سيرة الشيخ أبي الحسن علي الحسني الندوي جوانب مختلفة من حياته، ككاتب، ومفكر إسلامي، وأديب، ومؤرخ، ومصلح، وقائد سياسي، ولكن هناك جانب آخر مهم في حياته لم يطرقه الباحثون، وهو ما هي عناصر تكوين شخصيته، وفكره، وذوقه الأدبي، وسأحاول في هذا المقال إلقاء الضوء على "العناصر الأساسية لشخصية الشيخ الندوي" وخاصة الذوق الأدبي، وصلاحية التعبير، وهوايته وشغفه باللغة العربية والأدب العربي، الذي كان سبب شهرته، والحب الغامر له في العالم العربي، وقد أشار إليه سماحة الشيخ الندوي في سيرته الذاتية"في مسيرة الحياة" وبيَّن عهد طفولته وتربيته وتعليمه، والكتب والشخصيات التي أسهمت في تكوين ذهنه، وذوقه الأدبي، والديني، والعلمي، وعقليته، ومنهج تفكيره وعمله، وبناء شخصيته، ثم حدد الشيخ الندوي في ضوء ذلك المجال عمله.

ومن أهم العناصر الأساسية لتربيته، والدتُه الكريمة الفاضلة،

وشقيقُه الأكبر الطبيب السيد عبد العلي الحسني الذي كان جامعاً بين الأصالة والمعاصرة، وجامعاً بين أصناف العلم وضروب الكمال وأشتات الفضائل، وخاله السيد محمد طلحة الحسيني.

شغفه بالأدب الأردي

وأما شغفه باللغة الأردية واقتداره على البيان والتعبير فيها، فإنه ليس موضع استعجاب، لأنه كان الطبيعة السائدة في عهده، ونشأ في بيئة كانت هوايتها الشعر والأدب، كانت والدُته الكريمة السيدة خير النساء تتذوق الشعر وتقرضه، وكانت شقيقته أمة الله تسنيم شاعرة أديبة وكاتبة، وكان ابن خاله الأستاذ أبو الخير الحسني أديباً معروفاً في اللغتين العربية والأردية، وشاعراً مفلقاً، ومحدثاً، وابن خاله الآخر الأستاذ حبيب الرحمن كان يحمل ذوقاً عالياً للأدب، وكان له شغف زائد بالشعر، يقول الشيخ الندوي:

"وقد كثرت في ذلك العصر حفلات إنشاد الشعر والمساجلات الشعرية، فقد عقدت في قريتنا الصغيرة عدة حفلات من هذا القبيل، وحاولت أيضاً ـ تقليداً وتأثراً بما شاهدت ـ أن أنظم شيئاً، وجزى الله تعالى شقيقي الأكبر الدكتور عبد العلي الحسني فقد منعني من ذلك بشدة، وانقطع هذا العمل، الذي كان يخشى منه ضياع الوقت والجهد"[1].

ولكن بالرغم من ذلك بقيت صلته بالشعر، وكتبُه في الأردو

---

[1] - في مسيرة الحياة: ٨١/١.

تدل على ذلك، وواصل مطالعته لكتب الأدب الأردي، يقول :

"كانت في منزلي برائي بريلي مكتبة غنية بكتب أدبية، ومن بينها "نيرنك خيال" لأديب الأردية الأستاذ محمد حسين آزاد، وتأثرت بأدبه ونثره الذي كان نموذجاً عالياً للنثر الأردي في ذلك العهد، وسودت مئات من القراطيس تقليداً لأسلوبه المسجع، ولم يذهب هذا الجهد سدى، بل أفادني إفادة كبيرة، وقرأت في سني المبكرة والمرحلة البدائية لتذوقي بالأدب واللغة كتباً؛ تعتبر في القمة في اللغة الأردية وآدابها، وكنت في تلك الفترة مشغوفاً بقراءة كل شيء مطبوع، كائناً ما كان، وطالعت أعلام كتاب القصة في اللغة الأردية في ذلك العهد، وقد تركت هذه القراءات والمطالعات الأدبية أثراً فيّ، وتأثرت في الكتابة أولاً بأسلوب والدي الشيخ عبد الحي الحسني التاريخي الأدبي الذي هو نموذج جميل لكتابة رصينة، يحمل مع جدية التاريخ ودقته، رونق اللغة ورواءها، وقد تجلّى أثر تقليد هذا الأسلوب في مقالي الأول في أردو، كان عنوانه "الأندلس" (١).

ليس من الميسور للدارسين لكتابات الشيخ الندوي في الأردية والعربية أن يحكموا بأن خصائصه ومزاياه الأدبية تتجلّى أكثر في العربية أو الأردية ؟

أسلوبه للكتابة العربية :

أما أسلوبه الرائع الجزل الرصين في العربية ؛ فقد اعترف بتميزه

---

١ - في مسيرة الحياة ١/٨١ .

وبجزالة أسلوبه، ورشاقته وروعة بيانه وجماله وحسن ديباجته وتأثيره، الأدباء العرب المتذوقون ونبغاؤهم حتى فضله بعضهم على أدباء العرب، واعتبروه صاحب أسلوب خاص ومدرسة أدبية خاصة في الأدب، لها خصائصها ومزاياها، وإن الشهادات والانطباعات التي أبداها كبار العلماء والقادة والمربون والمفكرون والأدباء في العالمين الإسلامي والعربي على أساليب الشيخ الندوي العلمية والأدبية والخصائص البارزة لأفكاره، خير شاهد على هذه الموهبة الأدبية، ويجد القارئ نماذج رائعة وخلابة لأسلوب الشيخ الندوي في كتاب"المسحة الأدبية في كتاب الشيخ أبي الحسن علي الندوي" لكاتب السطور.

نشر الشيخ الندوي أول مقال في العربية في مجلة "المنار" التي كان يصدرها العلامة سيد رشيد رضا المصري، ولما نشر أول كتابه وإنتاجه الفكري - وهو في الثالثة والعشرين من عمره - "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" حاز إعجاب المفكرين والباحثين في الشرق والغرب، وكان ثورة في التفكير وثورة جديدة في أسلوب البحث والتحليل، وقد أشاد به كل من السيد قطب الشهيد، والدكتور أحمد الشرباصي، والدكتور محمد يوسف موسى، والأستاذ عبد الرحمن حبنكة الميداني، في كلمات تقديم للكتاب، وأبدوا انطباعاتهم الجيدة، وهي شهادة كافية أن أسلوب الشيخ الندوي كان قد بلغ غايته في الكمال والجمال والروعة والنضج وهو في الثالثة والعشرين من

عمره، ولم يسافر إلى الخارج ولم يتصل بالعرب.

ومن أعلام العرب الذين اعترفوا بامتلاك الشيخ الندوي بناصية اللسان العربي وقدرته الفائقة على اللغة العربية حواراً وكتابةً، وخطابة وتحدثاً، وروعة أسلوبه ونصاعة بيانه، وفصاحته وبلاغته، أمثال الزعماء البارزين المفتي الأعظم للديار الفلسطينية الشيخ أمين الحسيني، والأمير عبد الكريم الريفي، واللواء صالح حرب الباشا، وعبد الرحمن رأفت الباشا، واللواء محمود شيت الخطاب، ومن أعلام الحركة الإسلامية المعاصرة المفكر الإسلامي الكبير سيد قطب الشهيد، والكاتب الإسلامي القدير محب الدين الخطيب، والدكتور أحمد الشرباصي، والداعية الإسلامي الشيخ محمد الغزالي، والدكتور سعيد رمضان، والأستاذ صالح العشماوي، والشيخ بهي الخولي، والدكتور يوسف سلامة، والدكتور أنور الجندي، والدكتور شكري فيصل، والأستاذ عباس محمود العقاد، والأستاذ أحمد حسن الزيات، والأستاذ محمد محمود شاكر والدكتور محمد حسين هيكل.

شهادات الكتاب العرب النابهين واعترافاتهم

يقول المفكر الإسلامي سيد قطب الشهيد في تقديمه لكتاب "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين":

"هو من خير ما قرأت في هذا الاتجاه في القديم والحديث، فإن الخصيصة البارزة في هذا الكتاب هي الفهم العميق لكليات الروح الإسلامية في محيطها الشامل، وهو لهذا لا يعد نموذجاً للبحث الديني

والاجتماعي فحسب، بل نموذجاً كذلك للتاريخ كما ينبغي أن يكتب من الزاوية الإسلامية "[١].

ويقول الدكتور يوسف موسي:

"إني - علم الله - لست أذكر فيما قرأت من القديم والحديث كتاباً يحوي من الخير ما حواه هذا لكتاب، ولا كتاباً وضع أيدينا على دواء ما نشكو منه من أدواء وأمراض، كما فعل هذا الكتاب، ولا كتاباً نفذ كاتبه إلى روح الإسلام وأخلص ويخلص في الدعوة له، ويقف كل جهوده على هذه السبيل كهذا الكتاب" [٢].

ويقول الدكتور شكري فيصل عضو المجمع العلمي العربي بدمشق في مقال له نشرته مجلة"الثقافة المصرية في عددها الصارد في ٨/من ربيع الأول سنة ١٣٧٠هـ-١٧/ديسمبر١٩٥٠م):

"إن ما يمتاز به المؤلف ويرتفع به إلى مصاف كبار المفكرين المسلمين ذلك هو نظرته الشاملة العالية إلى تطور الحياة الإنسانية، والواقع أن من مميزات هذا الكتاب أسلوبه الواضح، ولعل وضوحه أثر من انعكاس وضوح الفكرة والإيمان بها وفيضها عن ذات المؤلف العميقة، على أنه من نحو آخر قوي قويم، يملك قدرة واضحة على الاشتهادة بالقرآن الكريم، والحديث الشريف، في صفحات كثيرة، والشعر، واستثمار التراكيب القرآنية والعربية استثماراً واسعاً، واختيار

---

١ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص: ٢٣.

٢ - من تصدير كتاب "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" ص: ١٧، الطبعة الأولى، دار الغد الجديد، المنصورة، مصر ٢٠٠٥م

العناوين وتلوينها اختياراً وتلويناً طريفين، ووضع الشاهد في مكانه الذي يجب أن يكون فيه، حتى لكأنه قطعة من النص وكلّها هذه سمات أسلوب مكين واضح".

ويقول الدكتور مصطفى السباعي في تقديمه لكتاب"رجال الفكر والدعوة في الإسلام":

"كتبه ومؤلفاته تتميز بالدقة العلمية، وبالغوص العميق في تفهم أسرار الشريعة، وبالتحليل الدقيق لمشاكل العالم الإسلامي ووسائل معالجتها".

ويقول الأستاذ أنور الجندي :

"أسلوب الشيخ الندوي في غاية الروعة والجمال، وله قدرة عالية في البيان، وعمق الفهم للإسلام".(١)

ويقول الأستاذ محمد المجذوب في كتابه "علماء ومفكرون عرفتهم"(ص: ١٢٨):

"ومتتبع ما يكتب الشيخ الندوي يشعر بأن لعباراته الأدبية سحراً لا يتوافر في العادة إلا في العلية من أصحاب المواهب الذين تعمّقوا سرّ الكلمة وتفاعلوا به، وكان لقلوبهم أكبر الأثر في ما يصوغونه، وتلك هي الخاصة الرئيسية التي يمتاز بها أبداً أولو الأذواق الروحية من المتخرجين في مدرسة القرآن، وبهذه الخاصة يتناول الشيخ (الندوي) الأحداث التاريخية، فإذا هي مائجة بالحياة والعبر، وقلّما

---

١ - (الأستاذ أبوالحسن علي الحسني الندوي: كاتباً ومفكراً للأستاذ نذرالحفيظ الندوي)

تقرأ له بحثاً أوقصة أوحديثاً لا تلمس أثناءه هذه الصورة الناطقة بالحكمة".

ويقول الدكتور أحمد محمد طحان :

"عند ما أتحدث عن السيد أبي الحسن الندوي فإني أتحدث عن كاتب إسلامي عظيم من طبقة العلماء القلائل الذين جمعوا بين العرض الموضوعي العلمي الدقيق، وبين المقارنة الواسعة والحل المناسب، ضمن أسلوب أدبي رصين، جمع بين بلاغة الأولين وسهولة المتأخرين".(١)

ويقول الأديب العربي الكبير الدكتور سيد علي الطنطاوي وهو يلقي الضوء على الذوق الأدبي للشيخ الندوي وحسن اختياره:

"إذا كان الدليل على ذوق الأديب اختياره، فحسب القراء أن يعلموا أننا عرضنا من أمد قريب كتب المختارات الأدبية لنتخير واحداً منها نضعه بين أيدي تلاميذ الثانويات الشرعية في الشام، وذهب كل واحد من أعضاء اللجنة ـ وكلّهم من الأدباء ـ يبحث ويفتش ـ فعدنا جميعاً وقد وجدنا أن كتب المختارات المدرسية وأجمعها لفنون القول وألوان البيان، مختارات أبي الحسن".

..... وكتب في ذلك مراراً، فما التفت إلى ذلك أحد، فيئست منه، حتى وجدت كتاب أبي الحسن، فإذا هو قد نفض كتب الأدب والتاريخ نفضاً، وحرثها حرثاً، فاستخرج جواهرها، فأودعها

---

١ - (الأستاذ أبوالحسن علي الحسني الندوي: كاتباً ومفكراً للأستاذ نذر الحفيظ الندوي، ص:١٦)

كتابه"[١].

وقد كتب بعض الأدباء البارزين أن كلام الشيخ الندوي ينفذ في القلوب مباشرة، وهو تعريف الأدب العالي، والجيد من الشعر أيضاً.

فما هي العناصر الحقيقية لتكوين مثل هذا الذوق الأدبي الرفيع، والقدرة الفائقة على البيان وحلاوة الأسلوب وروعته وجزالته ورصانته ورشاقته، نذكر فيما يلي مقتبسات من كتابات الشيخ الندوي نفسه التي تشير إلى عناصر تكوين ذوقه الأدبي العالي وسليقته الأدبية، ولها أهمية وقيمة كبيرة في وضع طرق تعلّم اللغة العربية وتدريسها وتكوين الذوق الأدبي، واختيار النصوص الأدبية ووضع المقررات الدراسية وهي تفيد المعلّمين والمتعلّمين معاً.

يقول الشيخ الندوي في مقال له بعنوان: "كتب أفادتني" نشرته مجلة "الندوة" الصادرة باللغة الأردية، ثم طبع بشكل كتاب بعنيه.

"درس أستاذنا الشيخ خليل بن محمد بن الشيخ حسين بن محسن اليماني سورة "الزمر" بتذوق واشتياق لترسيخ عقيدة التوحيد في القلب عند ما بدأت دراسة اللغة العربية عليه، وقد أودع الله عزوجل فيه ذوقاً فطرياً للأدب العربي، وخاصة للشعر العربي، قلّما يوجد له نظير، وكان ينتسب إلى أسرة يمنية لهج لسان النبوة بالشهادة والخير لها "الإيمان يمان" وقد ورث جمال الطبيعة العجمية من أخواله، وحرقة القلب العربية من أعمامه، فكان كلما يتلو القرآن يبكي فيبكي

---

[١] - مقدمة كتاب "مختارات من أدب العرب" للشيخ الندوي، الجزء الأول ص: ٦.٥.

المستمعين، وحينما ينشد القصائد كان يصوّر سوق عكاظ تصويراً حياً، وكان يتميز بتذوقه في التوحيد، ودرس هذا الموضوع فأحسن وأجاد، وفتح القلب للتوحيد، ولم أزل أحتفظ بتلك النعمة منذ ذلك الحين، وأشكر الله على هذه النعمة وقد نقشت آية ﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ في القلب، وإن الحيل والدعاوي التي تقدمها فلسفة نظام الشرك من قديم مستمسكة بقول ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ لا تزيد عن نسج العنكبوت.

وكانت له صلاحية منقطعة النظير لنقل ما لديه من علوم ومعارف وذوق وبصيرة إلى الطلاب، كما كان يتمتع بالقدرة الفائقة على تنمية الذوق السليم فيهم، وتحبيب الكتاب الذي كان يدرسه إليهم حتى ينشأ فيهم حبّ الموضوع وتقدير للمؤلف، واختار الشيخ خليل مقرراً دراسياً خاصاً باجتهاده، وكان جديداً بالنسبة إلى الهند، اشتمل على بعض الكتب المصرية في مدارسها كـ "الطريقة المبتكرة" (في خمسة أجزاء) و"مدارج القراءة (ثلاثة أجزاء) وكتاب "كليلة ودمنه" لعبد الله بن المقفع و"مجموعة من النظم والنثر للحفظ والتسميع" و"المطالعة العربية".

وقد ألقى الشيخ علينا الدروس الابتدائية في النحو من كتاب "الضريري" للمؤلف أبي الحسن علي الضريري، وكان التركيز عنده في الصرف والنحو على التمرين وصحة القراءة، وفهم وجوه الإعراب وبيانها، كما كان التمرين على الإنشاء مقرراً أيضاً، وقد أفادني هذا

التمرين كثيراً فلو لم نشعر بأهمية وقيمة المنهج الذي كان يتبعه الشيخ خليل في التدريس، ولكني أحسست فيما بعد أنه منهج مفضل مبني على التجارب العملية، ويسفر عن نجاح كبير لا يحصل بطريقة أخرى، فهو كان لا يخلط بين لغتين، بل ومادتين مختلفتين في التعليم في وقت واحد، فمنذ بداية دراستنا للغة العربية حتى سنتين عكفنا على دراسة اللغة بما فيها قواعد النحو والصرف، وعلى الأدب مع ممارسة الكتابة والإنشاء، وكان ذلك نهاية أملنا ورأس مالنا، فأنشانا فينا بمنهجه الفريد في التعليم والتربية التذوق الصحيح للعربية وآدابها ولغتها.

ودرسني بعد الانتهاء من الكتب الابتدائية الكتب القديمة المهمة بتذوق وتلذذ وشغف كبير، كـ" نهج البلاغة" و"الحماسة" لأبي تمام و"سقط الزند" لأبي العلاء المعرى و" لامية العرب" للشنفرى، و"قصيدة بانت سعاد" لكعب بن زهير و"دلائل الإعجاز" للجرجاني، وبجانب هذه الكتب النثرية والدواوين الشعرية درسنا خلاصة تاريخ آداب اللغة العربية

ومن خصائص الشيخ خليل أنه كان يعرض الكتاب والأدباء المحبوبين لديه وكتبهم المفضلة على الطلاب بأسلوب فريد وأخاذ، و نماذج عالية لأساليب الأدب والبيان وأفانين القول في النثر الفني، ومقاييس الذوق الصحيح والأدب العالي، فكان يملك صلاحية غريبة مدهشة في صبغ الطلاب بأفكاره وآرائه، بحيث تتغلغل في أحشائهم وتمتزج بلحومهم ونفخ الروح في الكتاب الذي يدرسه، وإنشاء الذوق الصحيح والملكة الصالحة في الفن الواحد الذي يتناوله، وتقريب

الطلاب إلى مؤلف الكتاب ذوقاً ومسلكاً ومشرباً، وكان مقدمة الأدباء والكتاب والشعراء المفضلين لديه عبد الله بن المقفع والجاحظ في النثر، وعبد القاهر الجرجاني في ذوق النقد الأدبي وفهم الكلام، والمتنبي والبحتري في الشعر، وكان تلاميذه يعدون من السعادة أن ينشأ فيهم ذوقه للأدب واللغة، وأن ينصبغوا بصفته، وقد حاولت أحياناً محاكاة عبد الله بن المقفع وصاحب نهج البلاغة في أسلوبها وطريقتها في الأداء البياني والتعبير والكتابة الأدبية.

ومن خصائصه أنه كان يتلذذ بالألفاظ والتعابير الرائعة، ويبدي لنا ما يشعر به من لذة وحلاوة، حتى كانت تلك الكلمات والتعبير ترتسم في ذهننا وتترسخ في ذاكرتنا، وكنا نظنّ أن الالتذاذ بها والشعور بأهميتها ممّا لا بد منه.

ومن خصائص تدريسه أنه كان يخلق فينا الشعور بأن هذه الثروة اللغوية ليست ملكاً لأحد، ولا هي كنز لا تصل إليه يد تلميذ متأخر زمانه، وإنما هي ملك مشاع يمتلكه كل من يقدر على استخدامه على وجه صحيح مناسب، وربما كان يبدي سروره وإعجابه بتعبير جميل أو مثل سائر، أوجملة نكتبها صحيحة على دفتر الإنشاء كأننا قمنا بعمل جليل يستحق التقدير والإعجاب، وكان يمنحنا جائزة في بعض الأحيان.

وفي ختام هذه الدراسة أعطانا الشيخ خليل كتاب "النظرات" للأديب مصطفى لطفي المنفلوطي للمطالعة، فأثر هذا الأديب البارع

بأسلوبه الساحر تأثيراً عميقاً عليّ، وسيطر عليّ أسلوبه المعجب العذب كالماء السلسال، اصطبغت به كتابتي، وامتزج بكياني، وتغلغل في أحشائي، فكتبت مقالات على أسلوبه".

استفادته من الشيخ تقي الدين الهلالي

ومن الشخصيات التي أثرت في تكوينه الذهني وأدت دوراً كبيراً في إنشاء الملكة الأدبية فيه والذوق الأدبي، العلامة الشيخ تقي الدين الهلالي الذي تعرف به الشيخ الندوي على الكتاب والأدباء في العالم العربي، يقول الشيخ الندوي:

" وفي عام ١٩٣٠م قدم ندوة العلماء أديب بارع ذو أسلوب متميز باقتراح الشيخ خليل عرب وبدعوة أخي الكبير هو العلامة تقي الدين الهلالي والذي لو لم أره لاحتجب عني كثير من حقائق اللغة العربية وقواعدها ومبادئها، ولم أتخلص من عجمة الهنود، ولاعتبرت لغة القرن الثاني والثالث آثاراً مطمورة وميتة وآيات منقوشة على الأوراق ومكتوبة على صفحات التاريخ، فإنه كان جمع بين أسلوب السلف وتورعهم العلمي حيث يقول صاحب العلم عند عدم معرفته: "لا" لا أدري" عندما لم يقم بالتحقيق العلمي" وحفظ أهل الشنقيط وإتقان أهل اللغة العربية، وكمال النحويين وحلاوة أصحاب اللغة في الكلام، فإني لم أسمع غيره يتكلم بلغة صاحبي الآغاني والبيان والتبيين، فتتساقط الزهور وتنزل اللآلي والدرر من فمه عند ما كان ينطق، تكون كل جملة من كلامه مثالاً عالياً للأدب، كان يتكلّم

بما كان يكتب وكان يتحدث باللغة العربية الفصيحة الجميلة السائرة وما ينطق به يكون محاورة عربية أو لغة متداولة سائرة لدى النابهين من الأدباء والشعراء".

وقد انتفع الشيخ الندوي بالعلامة الهلالي، وقرأ عليه الكتب الأدبية ونهل من نمير أدبه وعلمه الفياض كما استفاد بمجالسه، وصحبته في الأسفار والزيارات، وقد صقلت مجالسه المواهب الأدبية وأنشأت الملكة الأدبية في المستفيدين به، يقول الشيخ الندوي:

"اكتشفت بصحبته ومجالسته حقيقتين: إحداهما أن هناك فرقاً بين اللغة والأدب، فأما اللغة فإنها لبنة الأدب وأسها، وأما الأدب فهو قصر اللغة، ونقوش ومعالم لجدران اللغة، واللغة وسيلة فنية متقدمة للتعبير عن الأخيلة والمشاعر والأحاسيس والأفكار الذي يتولد حيث تتطور الثقافة والحضارة، فتعليم اللغة يأتي أولاً قبل تعليم الأدب، فمن لا يعلم اللغة لا يستطيع أن يعرف الأدب، وتعليمه قبل الأوان تضييع للوقت، وتتم دراسة الأدب العالي في الهند باسم اللغة التي لا تؤتي ثمارها المرجوة ولا تنفع بشيء في معظم الأحيان، وإن نظرة على المناهج الدراسية في المدارس تبين أن الكتب الأدبية المقررة لطلاب المرحلة النهائية، تدرس في المرحلة الابتدائية، وكذلك كتب النحو والصرف متكدسة، يتحملها الطالب الابتدائي، كان يقول العلامة الهلالي أن كتب الحريري والمتنبي والحماسة كتب أدبية غالية تتم دراستها بعد تعليم ومزاولة اللغة العربية مدة طويلة والتي يدرسها

الطلبة في المرحلة المنتهية، ولكنها كل بضاعة الأدب في الهند، فنحتاج إلى أن نتعلمها كلغة حية قبل ذلك وكان يرى أنه يجب أن نتعلم اللغة ككائن حي بدون أية مساعدة من الترجمة والشروح وكان يصر على رأيه هذا ويبرهن في محاضرات متواصلة بالأدلة والبراهين الدامغة".

وكان نتيجة هذا التعليم والتربية أنه عندما اختير مستشاراً تعليمياً لندوالعلماء وأجرى تغييرات في المنهج الدراسي قلل من المواد المقررة لعلمي النحو والصرف وأدخل كتباً جديدة مؤلفة بأسلوب جديد ملائم لمستوى الطلبة وطبيعتهم وذوقهم بالإضافة إلى التركيز على تعليم اللغة .

والحقيقة الأخرى التي اكتشفها الشيخ الندوي على يد العلامة الهلالي وهي"أول قواعد النحو والصرف مبادئ لتشكيل اللغة، تأتي درجاتها بعد اللغة، وبدون ذخيرة اللغة لا تجدي قواعد النحو والصرف نفعاً، والمفردات والألفاظ والجمل آجار للمبنى، وتعلم النحو أسّ البناء وفن الهندسة، فإن فقدت الآجار لن يبن أي مبنى وأية هندسة قد لا تغني عن شيء .

وكان يرى العلامة الهلالي أن النموذج الحسن الرائع الحي هوكتب التاريخ الموثوق بها ومنها مؤلفات العصر العباسي الأصيلة ولذلك أوصى بمطالعة كتب "الإمامة والسياسة" لابن قتيبة وكليلة ودمنة" لابن المقفع و "الآغاني" لأبي الفرج الأصفهاني و"رسائل الجاحظ".

أعتقد أن فكرة الأدب الإسلامي التي قدمها الشيخ الندوي في دمشق ثم أصبحت حركة عالمية، كان أساسها تصور العلامة الهلالي لمحو الأدب واللغة.

موقفه من أهمية الصحافة في تعليم اللغة:

يقول الشيخ الندوي وهو يلقي الضوء على أهمية الصحافة ودورها في تعليم اللغة والأدب ومعرفة الاتجاهات الجديدة في هذا المجال:

" كانت هذه الحقبة من تاريخ دار العلوم ندوة العلماء فصل ربيع للغة العربية في رحابها حيث كانت تفيض بركات الشيخ الهلالي من جانب، ومن جانب آخر يصدر زميلي الأستاذ مسعود عالم الندوي مجلة "الضياء" التي صقلت الذوق الأدبي والتمرين الكتابي وحركته إلى الأمام، وكانت السبب الأول في سيلان القلم وتفتق القريحة واتساع الأفق، وفي هذا الوقت أصبحت الكتابة والمطالعة والمنافسة والنقد باللغة العربية الشغل الشاغل، ومن حسن الحظ كانت تأتينا جرائد وصحف ومجلات مصرية وشامية وعراقية ومغربية فنطالعها بشوق ورغبة، ونتبادل الآراء عنها، فهذه أولى دراسة للصحف والمجلات، ورغم أني كنت قد درست الكتب النهائية من الأدب العربي وصحبت الأساتذة العرب إلا إني كنت أجد شيئاً من الصعوبة في فهم هذه الصحف، وكان أخي يساعدني ويحل لي المشكلات ويشرح التعبيرات والمصطلحات الجديدة، وانتفعت بها في

الإنشاء والتعبير، ونفعتني هذه القراءة في التعبير والبيان أكثر مما نفعتني الكتب الأدبية التي قرأتها ودرستها".

إدراكه لنقص العمق في الأدب الجديد

يقول الشيخ الندوي:

"ولاشك في أن مطالعة مقالات الكتاب المصريين والشاميين قد ساهمت في معرفتي باللغة العربية والأدب وتطورها وتزود المجلات والصحف قراءها بثروة لغوية ونوادر مطمورة مغمورة منذ زمن، ويكتب الكاتب المعاصر - كما قال الأمير شكيب أرسلان - في يوم واحد ما لم يكن يكتبه الكاتب العباسي في سنوات، ولكن بالرغم من هذه الإفادة لم تؤثر مقالات هذه الصحف والمجلات على ذوقي وعقلي، ولم تؤثر على تفكيري كثيراً، وقد انتقد ذوقي الهندي الذي نشأ وتربى وتكون في مطالعة الكتابات الإسلامية الجادة الأصيلة، العميقة القوية، الرصينة الدقيقة، مراراً وتكراراً الأفكار العربية والاتجاهات الوطنية المعاصرة والانهزامية من الغرب وحضارتها وسطحية آرائهم، وشعر ذهني بما كانت تحملها من تبعية واستسلام وضعف، وقد قرأت هذه المقالات بغاية من الأذى واشمئزاز ذهنياً وروحانياً، - وقد وجدت بعض العمق في كتابات الأمير شكيب أرسلان وطابعاً من الإسلامية، ولكن الشخص الذي وجدت في كتاباته رأياً ودقة نظر وعمقاً ووجدته يحدد أمراض الأمة الإسلامية ويصف لها دواء يأتي لها بشفاء وترك أثراً كبيراً على ذهني وعقلي هو كتاب الكاتب عبد الرحمن الكواكبي

الذي قد نسيه الناس ومضى عليه زمان، ولكن فيما بعد أصبت بصدمة كبيرة عندما رأيته يؤيد المنادين بالقومية العربية، وهو أول من سعى لإثارة الكراهية في العرب ضد العثمانيين فتغير رأئي فيه وقل تقديره في القلب".

أول كتابة عربية

وفي عام ١٩٢٧ ــ ١٩٢٨م صدرمقال للأستاذ محي الدين القصوري في مجلة "التوحيد"التي كانت تصدر برئاسة تحرير فضيلة الشيخ داود الغزنوي المتوفى ١٩٦٣م وكان عنوان المقال "مجاهد الهند الأعظم"وقد عرضت فيه دعوة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد وسيرته بأسلوب عصري وطريقة جديدة، فأشار عليّ أخي بنقل المثال إلى العربية، فترجمته ترجمة حرة ثم عرضتها على الشيخ الهلالي فتناول بعض المواضع بالتصحيح ثم بعثتها إلى العلامة سيد رشيد رضا المصري صاحب مجلة "المنار" فلم يقتصر الشيخ السيد رضا المصري على نشرها في المجلة فحسب، وإنما نشرها في رسالة مستقلة بعنوان "ترجمة الشيخ الإمام أحمد بن عرفان الشهيد" وكان أول خطوة في مجال الترجمة والكتابة، وأول مؤلف لي طبع في الهند فحسب، بل في مصر.

تاثره بكتاب زاد المعاد في هدي خير العباد

بدأت أطالع ـ وأنا في سن المراهقة الفكرية ـ كتباً غير مرتبطة بالمنهج الدراسي، فاستهللت مطالعتي بكتاب"زاد المعاد في هدي خير العباد" لابن قيم الجوزية، فحل مني محلاً عظيماً، فكأنه مكتبتي

ورفيقي في السفر، ومشرفي وأستاذي، وبدا لي كممثل بارع عظيم للمكتبة الدينية العامرة، يملأ الفراغ إذا حرمت من الاتصال بهذه المكتبة الزاخرة، إنه علمني طريقة الصلاة المأثورة عن النبي صلى الله عليه وسلم ولقني الأدعية والأذكار المأثورة، وهداني إلى آداب السفر، وبه عرفت كيف أقضي نهاري وليلي في ضوء السيرة النبوية.

ومن الكتب التي أفادتني كثيراً في مقتبل عمري وكانت لها منة علي، كتاب "قيام الليل" لمحمد بن نصر المروزي البغدادي أحد تلاميذ الإمام أحمد بن حنبل، ومن خصائص هذا الكتاب أنه لا يخاطب العقل ولا يعتمد على الدليل فحسب، بل يضرب على أوتار القلب ويمس سويداء النفس، ويغير وجهة الهواية والشوق، وبهما العبرة، وإنه أتى في كتابه بقصص للسلف وتدبرهم في القرآن وفهمهم له، وجمع فضائل قيام الليل بطرق بديعة مؤثرة، إذا قيض لشاب في ريعانه أن يعتكف على دراسته، أصبح هذا الكتاب كمرب ومرشد كامل له(١).

خصائص أسلوبه الأدبية

كان الشيخ الندوي أديباً مجدداً، ولم يكن إنتاجه محصوراً في صنف واحد من أصناف النثر، فقد كان خطيباً، وكاتب قصص، وناقداً، وكاتب سيرة، وتاريخ، ومسجل رحلات، وله أسلوب متميز في سائر هذه الإنتاجات، فإنه رغم جمعه للموضوعات المختلفة كان جامعاً لعذوبة الأدب القديم وجزالته وسهولة الأدب الحديث

---

١ - الكتب التي أفادتني لكبار الكتاب والعلماء(في أردو) للأستاذ محمد عمران خان الندوي ص: ١٧٩ـ ٢٠٩.

وموضوعيته وعلميته، ولا نظير له في هذه الأعمال إلا أمير البيان الأمير شكيب أرسلان، وقد أشار إلى هذه الجامعية الدكتور عبد الباسط بدر في مقدمة كتاب الشيخ الندوي "نظرات في الأدب" فكتب يقول:

"صحيح أن كثيرين يجمعون بين الأدب والفكر - فمن خصائص عصرنا تداخل الأدب والفكر إلى حد التلاحم - وكثيرين يجمعون بين الأدب والدعوة إلى الله، فلا يخلو بلد إسلامي من أدباء إسلاميين، وغير قليلين من معاصرين يجمعون بين الفكر والدعوة إلى الله - ولكن الذين يمسكون الخيوط الذهبية الثلاثة: الأدب والفكر والدعوة في آن واحد، قليلون جداً في عصرنا هذا، منهم محمد إقبال، وسيد قطب، وصاحب هذا الكتاب".

ويقول:

"لقد تجمعت في أبي الحسن صفات الأديب الإسلامي العالمي، فهو أديب في العربية، وأديب في الأردية والفارسية، وكأنما وضع الله فيه هذه السمات ليكون الرجل الذي ننتظره ليتعزز به الأدب الإسلامي، وليجد من يرعاه في عصر القوميات الضيقة، ومحاولات فصل الدين عن الأدب والفكر والسياسة والاقتصاد وجوانب الحياة العملية، فقد احتضن هذا الرجل - بحماسة المؤمن الصادق - أول تجمع للأدباء الإسلاميين على اختلاف جنسياتهم ولغاتهم، وظهرت برعايته أول هيئة أدبية إسلامية لا في العصر الحديث وحسب، بل وفي تاريخ الشعوب الإسلامية كله، فما أعرف في هذا التاريخ الطويل العريض

تجمعاً للأدباء يلتقي فيه الهندي والعربي والتركي والإندونيسي على مفهومات واحدة، ومنهج عملي موحد، ولئن كانت الروابط والاتحادات والجمعيات الأدبية بدعة حديثة في العالم كله، فإنها لم تعرف تجمعاً للأدباء الإسلاميين قبل أن يحتضن أبو الحسن رابطة الأدب الإسلامي ويرعاها" (١).

تصوُّره عن الأدب ودوره في الحياة

لقد كان الأدب هو العنصر الغالب في عناصر شخصية الشيخ الندوي، وهو الطابع الغالب في سائر كتاباته، والشيء الذي يميزه عن الأدباء الآخرين هو التقاء عناصر الأدب المختلفة، بتوازن في كتاباته، وقد قام الشيخ الندوي بتوظيف الأدب للدعوة والتربية، وخدمة الإنسانية كخطيب، وكمعلم، وكاتب، وله أسلوب خاص وصفه أحد الأدباء العرب بالأسلوب الندوي، ونطاق إنتاجه واسع يغطي موضوعات الأدب المختلفة، والشيخ الندوي له تصور خاص عن الأدب، إنه يرفض تصور الجمود، والتقليد في الأدب، أو حصره في موضوعات خاصة، كما هي عادة الأدباء المحترفين الذين استغلوا الأدب لأغراض محدودة، وقد أشار الشيخ الندوي إلى تصوره عن الأدب ودوره في الحياة، فقال :

"إن الأدب الذي كان أجدر بأن يرفض السير على خط واحد رسمه القدماء، وكان أحق بأن يتعير من الجمود والتقليد من أية

---

١ - نظرات في الأدب

مؤسسة علمية ومدرسة فكرية، إن الأدب الذي رضع بلبان الجدة والجراءة والذكاء والتذوق بالجمال، وارتفع أساسه - بالتعبير الأدبي - على حب الجمال في كل شيء، وعلى الشغف بالأزهار والأوراد، في كل حديقة، وروضة، وفي كل غابة وواحة، هذا الأدب قد وقع - مع الأسف - فريسة العصبية التقليدية، وأصبح أسيراً للعادات والرسوم، وقلما نجد الأدباء والنقاد في هذا العصر يتجاوزون حدود تعريف الأدب والإنشاء الذي وضعه المؤلف الأول أو مؤرخ الأدب القديم، أو يتخطون رسومه التي قررها هو، الأمر الذي جعل كل أديب يترسم خطى الأديب الذي سبقه في رحلته الأدبية، دون أن يطمح إلى زيادة أو ابتكار، أو تطوير في ذخائر النماذج الأدبية، إنما يتم اختيار عدة أشخاص مثاليين للأدب والكتابة فيقلدهم كل أديب ومؤرخ تقليداً أعمى، ويجتر آثارهم وأسلوبهم، وما أصدق قول شاعر الإسلام الدكتور محمد إقبال تعبيراً عن هذه المدرسة الأدبية التقليدية تقليد الببغاء، حيث قال: "إن هذه المدرسة تدور كثور الطاحون حول محور واحد قديم"[1].

ويقول الشيخ الندوي وهو يعرف بالأدب :

"الأدب أدب، وإن كان صدر من كاتب ديني أو من نبي، أو كان مصدره كتاباً سماوياً، بشرط أن يكون بأسلوب مؤثر ينفذ إلى القلب، ويكون قائله مطمئناً مقنعاً بما قاله، ويلتذ به السامع ويقبله،

---

[1] - نظرات في الأدب لشيخ الندوي ص: ٧٥-٧٦

هل يجوز أن تفقد الوردة الجميلة رونقها وجمالها، وتتحول إلى قذى في أعين الأدباء والشعراء، والهائمين بجمال الفطرة الأخاذ، لأنها نبتت في روضة تحت ظل مسجد من المساجد، وتستحق زهرة أخرى ـ مهما كانت زاوية ذابلة ـ كل مدح وإطراء وكل حب وثناء لأنها نبتت تحت ظل خمارة من الخمارات، إن هذا التمييز في الاستمتاع بجمال الفطرة، وحسن الطبيعة لا يدل على الإنصاف ولا على الذوق الجميل".

فإن الأسلوب الأدبي للشيخ الندوي وتصوره عن الأدب نتيجة لهذا الذوق الأدبي الذي تم تكوينه في فترة دراسته وحياته المدرسية على أيدي أساتذته العرب المتذوقين بجمال الأدب الأصيل وحسن اختيار النصوص الأدبية وقراءته المتواصلة للكتابات الأدبية للنابهين من الأدباء والكتاب.

الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي
أسلوب دعوته ومنهج تفكيره

ولد الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي في عام ١٩١٤م في رائي بريلي، وقد شهد أجداده حركة الإمام أحمد بن عرفان الشهيد، وتأثروا بدعوته، وكان أجدادهم على صلة بأسرة الإمام ولي الله الدهلوي، وخلفاء الإمام السرهندي، فكانت هذه الأسرة قد جمعت مزايا هذه المدارس الثلاث، ورث الشيخ الندوي هذا المزيج الفكري والديني، واعترف به في كتاباته، فكان همُّ المسلمين والعالم الإسلامي، والإنسانية بأجمعها، يشغله في سائر مراحل حياته، وقد جمع همّ المسلمين، وهمّ الإنسانية، وقد عاش في عصر الصراع الدولي، حربين عالميتين، وعصر غلبة الفكر الغربي، والثقافة الأوربية، وعصر القوميات، والعصبيات اللغوية، والثقافية، وعصر استكانة المسلمين، وتخلُّفهم وخضوعهم للسيطرة الأجنبية، والجمود والركود في مجال العلوم الإسلامية، وشهد نشاطات عدة حركات إسلامية، وشارك في نشاطات بعضها، وجربها، واتصل بكبار قادة الفكر في عصره، وشاهد في أسفاره ورحلاته إلى الدول الخارجية النشاطات التعليمية، والتربوية.

بدأ حياته بعد الفراغ من مرحلة التعليم، كمدرس، لكنه ترك الوظيفة، وأطلق نفسه من قيودها، ليقوم بأعباء الدعوة والإصلاح بحرية، واختار منهجاً خاصاً للعمل، ووسع دائرة نشاطاته من إطار المسلمين إلى الإنسانية كلها؛ بأسلوب يميل القلوب، ويجذب النفوس؛ بالكتب والخطب، والرسائل واللقاءات، والحوارات، يخاطب بها الحكام، والقادة، والمثقفين، وعامة الناس، لكل طبقة أسلوبٌ، ولكل بيئة طريقةٌ خاصّةٌ.

إنه كان يدعو إلى العودة إلى الإسلام في عصر غلبة الأفكار الأجنبية، عند ما كان الإسلام في قفص الاتهام، فواجه هذا الغزو بأسلوب علمي رزين مقنع، وهاجم الحضارة الغربية، بدون أن يثير كراهية أو حقداً أو ردّ فعل في النفوس، يعالج مركب النقص في المسلمين، ويحفزهم إلى العمل البناء، ويكسر شوكة الأعداء، كان في ذلك أسلوبُه أسلوباً معتدلاً بين الأصالة والمعاصرة، إنه لم يكن يدعو إلى الرفض الكامل للحضارة الغربية، ولا إلى القبول الكامل، وإنما كان منهجه منهج الجمع بين القديم والجديد، كان دائم الفحص والاختبار، والدراسة والتفكير، وقد أوضح مسلكه في كتابه "الصراع بين الفكرة الإسلامية الشرقية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية" إنه كان يخاطب طلاب المدارس الدينية، ويطالبهم بتجديد المناهج، ويخاطب طلاب المدارس العصرية، ويطالبهم بالرجوع إلى منابع الإيمان واليقين، وتربية النفس، والخلق الحسن، وإلى الإبداع والابتكار

في العلوم، لا مجرد التقليد والمحاكاة في العلوم المستفادة من الغرب، فكان مجال عمله مجالاً واسعاً، ويخاطب العلماء والعاملين في مجالات العمل الإسلامي، فيدعوهم إلى البحث والنقد البناء، والاقتباس من العلم الجديد، والمناهج الجديدة، والنهوض لمواجهة الأخطار والتحديات الجديدة، بدلاً من التحصُّن والإنزواء، و وجه الدعوة إلى الجمع بين القلب والفكر، والعاطفة والتدبر، وبين الإنابة إلى الله والتضرع إليه، وبين الاجتهاد والجدّ في العمل، ومن أجل ذلك كان شخصية جامعة، فإنه كان باحثاً وداعياً وزعيماً، يخوض معركة الحياة، ويحل مشاكل المسلمين في الهند، ويتابع الأحداث وينفعل بما تصيب الإنسانية بصفة عامة من مصائب وآلام، وكوارث، ومآسي، ويرفع صوته، ويخاطب الضمير الإنساني ، وله منهج خاص لمعالجة القضايا السياسية، وكان مصلحاً ربانياً يعيش حياة الزهد و الورع، يقول الحق ولا يخاف لومة لائم، وكان مصلحاً اجتماعياً ومربياً دينياً في وقت واحد، فكانت حياته ذات جوانب متعددة، وقد وصفه الدكتور يوسف القرضاوي الذي عرفه شخصياً، و درس فكره عملياً بـ"رباني الأمة" و "الرجل القرآني المحمدي" الذي جعل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أسوته في هديه وسلوكه وحياته كلها، واتخذ سيرته نبراساً له، و"عالمي العطاء"، فتحدث إلى العرب، و إلى أمريكا، و أوربا، وكان عضواً لعدد من المؤسسات العالمية.

إن هناك سؤالاً ينشأ في الأذهان عند دراسة شخصية الشيخ

الندوي الجامعة، وهو أنه كيف التقت فيه هذه الصلاحيات والقدرات المتنوعة التي إذا وجدت صلاحية واحدة منها في زعيم، كان من الفحول، وقد يرد على السؤال ما كتبه الشيخ - رحمه الله تعالى - بنفسه في مقدمة له لكتاب "الأمير صديق حسن خان القنوجي" بقلم الدكتور محمد اجتباء الندوي، فكتب يقول :

"لقد ولدت في بيت كان موضوعه الحبيب، بل هوايته التأليف في سير الرجال وطبقاتهم، وتراجم العلماء، وأهل الفضل، و خاصة الذين أنجبتهم أرض الهند، ونبغوا في شبه القارة الهندية منذ دخول الإسلام في هذه البلاد إلى هذا القرن، ونشأت في بيئة كان الحديث الدائر المتكرر في أوساطها ومجالسها، وتكأة المتحدثين فيها الإشادة بالمثل والقيم الإنسانية والعلمية، والتنويه بسمات العلماء الكبار، ومجالات اختصاصهم وتبريزهم، والشعائر الغالبة عليهم، والتغني بنبوغ أصحاب النبوغ، وعبقرية أصحاب العبقريات في مختلف العصور والأمصار في إكبار وإعظام، بل في شيء من الهيام، فثارت في نفسي ملكة الإعجاب بمواضع العظمة، والنبالة، ومكارم الأخلاق، وعلو الهمة، وسمو النفس، من بين أفراد البشر في سن مبكرة لا تنبعث هذه الملكة في غالب الأحيان، والملكات البشرية المودعة في طبائع الأطفال قد يثيرها باعث خاص من بيئة وتربية وحوادث مخصوصة، فتنقدح وتتفتق قبل أوانها الطبيعي المعتاد.

قد نشأت بصفة خاصة على حب التفنن في الفضائل، والجمع

بين الأشتات، بل الأضداد من الفضائل الإنسانية، وأنواع العلوم والمعارف، والآداب والثقافات، وعلو الهمة، والقدرة الفائقة على التنسيق بينها، وتسخيرها للوصول إلى غاية مثلى، وخدمة العلم والدين، حتى لو أدى ذلك إلى المشاركة في علوم وآداب يتحاشى عنها كثير من علماء الدين، ويعدونها من حثالة العلوم، وبراية الآداب.

ونشأت كذلك على حب من يوفقه الله ويقويه على الجمع بين الرياستين العلمية والعملية، والحسنيين الدنيا والآخرة، والنقيضين (في عرف الناس) في إمارة و وزارة من جانب، والاشتغال بالتأليف والتدريس، والتربية والإرشاد، والإصلاح وإزالة الفساد في جانب آخر".

إن عكوفه على البحث والتحقيق والتأليف الذي تدل عليه كتبه القيمة التي أثرت المكتبات الإسلامية، كـ"ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" و"الصراع بين الإيمان والمادية" و"الصراع بين الفكرة الإسلامية الشرقية والفكرة الغربية في الأقطار الإسلامية" و" الأركان الأربعة" و"السيرة النبوية" و"رجال الفكر والدعوة في الإسلام"، والكتب الدراسية للأطفال والناشئين، ونشاطه في مجال الأدب الإسلامي، والدعوة والإرشاد، إن عكوفه وانشغاله بهذه الأعمال لم يمنعه من قيادة حركات اجتماعية للمسلمين، ولغيرهم كـ"حركة التعليم الديني"، و"حركة إصلاح المجتمع"، و"حركة رسالة الإنسانية"، وقد كانت حركة رسالة الإنسانية حركة لا يوجد لها نظير في الحركات

الإسلامية السابقة، وفي تاريخ العلماء والدعاة السابقين.

تجربته مع الحركات الإسلامية المعاصرة وموقفه إزاءها

قد شارك الشيخ الندوي في نشاطات بعض كبرى الحركات الإسلامية الإصلاحية والدعوية، وجربها، وأبدى تقديره لخدماتها ومنجزاتها، وانتقد ما شاهد فيها من عيوب وانحراف، بأسلوب معتدل مقنع، وبحكمة وموعظة حسنة، واتصل بكبار قادة الفكر في عصره، وانتقد أفكارهم ومناهجهم بمنهج متزن لا يثير الحفيظة والكراهية، وزودهم بنصائح وبمنارات إرشادية تنير السبل، فقد اتصل الشيخ الندوي بالعلامة المودودي وأبدى إعجابه به واختلافه عن بعض أفكاره، فيقول في سيرته الذاتية "في مسيرة الحياة" وهو يوضح موقفه إزاءه:

" لقد كان أساس إعجابي وتأثري وصلتي بالأستاذ المودودي ومنشورات الجماعة، تلك المقالات الفاضلة الناقدة التي كتبها الأستاذ في الردّ على الحضارة الغربية، وفلسفتها للحياة، ووجهة النظر المادية المعاصرة، والتي قد جاءت معظمُها في مجموعة مقالاته باسم "تنقيحات". وقد كان في هذا الصدد بيني وبين الأستاذ توافق وانسجام كانسجام صغير مع كبير، ومؤلف ناهض مع مؤلف محنك، ولا شأن لي بالتفسير العصري للدين الذي يدبجه قلمه، ولا حاجة لي إليه، التفسير الذي يتجلى في كتابات الأستاذ كـ"المصطلحات الأربعة الأساسية في القرآن" و"تفهيمات" و"رسائل ومسائل" ذلك لأن أمري في

هذا الباب كان يختلف تماماً عن أمر شاب مثقف بالثقافة الإنجليزية، يقتبس تصوره للدين وفهمه إياه كلياً من كتابات الأستاذ أو من كتب مفكر أو مؤلف آخر، بدلاً من أن يقتبسه من مصادر الدين الأساسية — الكتاب والسنة — والبيئة والتربية الدينية.

ولذلك فقد كنت عاجزاً — لدراساتي الدينية المباشرة واستفادتي من كتب العلماء المتقدمين والمتأخرين الذين كانوا أوسع وأعمق علماً في الكتاب والسنة، ونجد عندهم اجتهاداً في الفكر والرأي، وعمقاً وإحاطة في الدراسة — عن أن أعتبر الأستاذ مفكراً إسلامياً فريداً، يندر نظيره عبر القرون، إنما كنت أعتبر ميزته الأساسية وجوهره، ذكاءه، وألمعيته، وحدة ذهنه، وقدرته الفائقة على الكتابة، والعرض في أسلوب عصري مؤثر، ولا أزال أعترف له بذلك".(١)

ويقول:

" ولكان من حسن حظ الإسلام وسعادة جد المسلمين لو جعل الأستاذ المودودي هذا العمل وحده نصب عينيه، وجند له مواهبه الغنية، ووقف له حياته العلمية الخصبة، ولكنه هبّ يمارس عملاً آخر؛ نستطيع أن نسميه " الصياغة الجديدة للفكر الإسلامي" أو " الصياغة الجديدة للإلهيات الإسلامية" واعتبره أساساً فكرياً لنهضة المسلمين، ولجمع كلمتهم، وللجماعة الإسلامية".(٢)

---

١ - في مسيرة الحياة: ١/ ١٦٥، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، دار القلم، دمشق.

٢ - التفسير السياسي للإسلام في مرآة كتابات الأستاذ أبي الأعلى المودودي وسيد قطب الشهيد، ص: ١٦، مطبعة ندوة العلماء لكهنؤ، الهند/ ١٣٩٩هـ.

اتصاله بحركة الدعوة والتبليغ وموقفه إزاءها

واتصل بالداعية الإسلامي الكبير الشيخ محمد إلياس الكاندهلوي وأبدى إعجابه به، وشارك عملياً في عمله الدعوي، بل له مساهمة كبيرة في توسيع نطاق عمله إلى البلدان العربية، يقول الشيخ الندوي:

" وأعجب ما رأينا في هذه الرحلة وأغربه، والذي غمرنا بالسرور الخالد والغبطة الكبيرة، هو عمل الشيخ محمد إلياس الدعوي، ونظامه التبليغي في منطقة ميوات. إن ما شاهدناه هناك بأعيننا، لم يكن مشهداً من مشاهد القرن العشرين، بل كان مشهداً يخيل إليك كأنه من التاريخ الإسلامي الأول، من إصلاح وتجديد، وتغير جذري في الأحوال والسلوك والأخلاق، وما كنا قرأناه في تاريخ المسلمين الجدد الذين كانوا يدخلون في الإسلام في القرن الأول من قصص حماسهم وعواطفهم وتذوقهم للإيمان وشغفهم بالدعوة إليه، وما رأينا من نماذج في كتب كالسيرة والتاريخ الإسلامي، رأينا أمثلته الحية، ونماذجه المتحركة".(١)

ويقول وهو يوضح موقفه من حركة التبليغ ومنهجه في التفكير

" لقد كان الواقع – رغم إعجابي الشديد بالشيخ محمد إلياس، وثقتي الكاملة بإخلاصه وفهمه للدين، وإيماني بضرورة هذا العمل الدعوي، وفائدته وأهميته، ومشاركتي العملية فيه، بل قيامي

---

١ – في مسيرة الحياة: ١٦٢، الطبعة الأولى ١٩٨٧م، دار القلم، دمشق، ١٩٨٧م.

بواجب الداعي وترجمان هذه الحركة الدعوية ؛ الأمر الذي كان يبعث الشيخ على الطمأنينة والسرور – أن هيكل تفكيري وقالب عقلي الذي كان قد تكوّن في وسط خاص، وفي ضوء دراسة خاصة، لم يكن قد صيغ صياغة جديدة، ولم يكن قد قبل الكسر والذوبان، ولا حل محله قالب عقلي وفكري آخر، الأمر الذي يعرض لكثير من أولئك الذين تتكون قوالبهم العقلية والتفكيرية من قبل، ولا يعطلون صلاحية تفكيرهم والاعتماد على دراستهم، ولم يكونوا – في تعبير أصح – قد اختاروا الاستسلام العقلي والفكري، والتجرد الكامل من ماضيهم، ولذلك يكون أولئك الناس أنفع وأجدى للحركات والدعوات، الذين تتكون قوالبهم العقلية والتفكيرية في ظل تلك الدعوات وا لحركات، ولا يضطرون إلى هجرة فكرية، أو رحلة عقلية.

لقد كان أمري – لحسن الحظ أو لسوء الحظ – يختلف عن ذلك، فقد كانت لي خلفية علمية وفكرية، ولم أكن قد طالعت ودرست الحركات الإصلاحية والتجديدية وشخصياتها الأساسية فحسب، بل كانت لي مشاركة في الكتابة عنهم والتعريف بهم، فكنت دائماً أفرق بين المنصوصات الشرعية وغيرها، وبين الأهداف والغايات، والوسائل والآلات، ولم تنقطع عندي سلسلة البحث عن نافع إلى أنفع، وحسن إلى أحسن، كما أرى من الضرورة بمكان لكل حركة ودعوة ومؤسسة تقوم لخدمة الدين وإعلاء كلمة الله تعالى، أن تستمر في النمو والارتقاء، وتطلع على قضايا الحياة ومسائلها

وحاجاتها، وتقضيها في حدودها المشروعة المطلوبة، وتطبق بينها وبين الحياة، وإلا فإن تلك الحركة أو المؤسسة تتعرض للحرمان من صلاحية النمو واستمرار الحياة، وتصاب بالشلل والجمود، وتنحصر فائدتها في حدود ضيقة.

لم تفارقني هذه الخواطر والأفكار – التي كانت نتيجة بيئتي الخاصة ودراستي، وقالب عقلي وتفكيري – في أي فترة من فترات الحياة، وقد كنت أيام حياة الشيخ أنشد أحياناً في خلواتي بيتاً من شعر إقبال: يقول فيه:

قضيت ليالي حياتي في صراع دائم طويل، فحيناً أذوق حرقة ولوعة كحرقة الرومي ولوعته، وحيناً آخر أهيم هيمان الرازي في تأملاته، وأتقلب بين أفكاري ونظراتي".(١)

جماعة الإخوان المسلمين وموقف الشيخ الندوي إزاءها

واتصل الشيخ الندوي بقادة جماعة الإخوان المسلمين، وأبدى إعجابه بمؤسسها الأول الشيخ حسن البنا، وأشاد بخدمات الجماعة الدعوية والإصلاحية والتربوية والتعليمية، وتحدث معهم، فيقول الشيخ الندوي في حديثه عنهم وهو يشيد دور الجماعة في إصلاح المجتمع المصري وخدمة الدعوة الإسلامية:

" إنها لمأثرة عظيمة للإخوان لا يمكن أن يستهين بقيمتها كل من في قلبه ضوء من إيمان، ولما أن مؤلف هذه السطور مطلع على حياة

---

١ - في مسيرة الحياة: ١/ ١٩٣.

هذه البلدان وأوضاعها ا لماضية والثورة الدينية والفكرية الحاضرة، وقد تيسرت له بفضل فرصة الإقامة الطويلة بها مشاهدات وتجارب شخصية، فهو يعرف معرفة جيدة كيف أثر الإخوان في النشء الجديد فكرياً وعاطفياً، وإلى أي مدى أحدث فيهم القوة والجراءة على إظهار شعائر الدين وإعلانها، وكيف بدأ أولئك الذين كانوا يخجلون من الظهور بالمظاهر والشعائر الدينية وإظهار العقائد والحقائق الدينية يتظاهرون — علناً — بالفرائض والشعائر الدينية على مشهد من الناس، ويحملون الشعور بالاستعلاء بدلاً من الشعور بمركب النقص، وقد كان نتيجة هذه المشاهدات والملاحظات والتجارب الشخصية أن قلت في إحدى محاضراتي بالهند، وأنا أتحدث عن الإخوان: "لا يحبهم إلا مؤمن ولا يبغضهم إلا منافق".(١).

ثم أبدى الشيخ الندوي ملاحظته وهو يتحدث معهم فقال:

" ليس خطب الدعوة الدينية والتجديد الإسلامي بهيِّن أيها الإخوان الكرام، فليست رسالتها ومهمتها قلب نظام فقط، أو تغيير وضع سياسي بوضع سياسي آخر، ونظام اقتصادي بنظام اقتصادي آخر، ولا نشر الثقافة والعلم، ومكافحة الأمية، والجهل، أو محاربة البطالة والتعطل، أو معالجة عيوب اجتماعية أو خلقية، إلى غير ذلك مما يقوم له الدعاة والمصلحون في أوربا وفي الشرق، وإنما هي دعوة "الإسلام" التي تشمل العقيدة، والأخلاق، والأعمال، والسياسة،

---

١ - في مسيرة الحياة: ١/ ٢٣٤.

والعبادة، والسلوك الفردي والاجتماعي، وتتناول العقل، والقلب، والروح، والجسم، وتعتمد على تغير عميق في القلب، والنفسية، والعقيدة، وتنبع من القلب قبل أن تنبع من قلم، أو صحيفة كتاب، أو منصة خطاب، وتنفذ على جسم الداعي وحياته قبل أن يطالب بتنفيذها على المجتمع والأمة.

فيجب علينا أن ننقي عقولنا ونفوسنا، وتجردها للدعوة، وللدعوة فحسب، والخدمة والتضحية، والإيثار، وإخراج الناس بإذن الله من الظلمات إلى النور ومن الجاهلية إلى الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان المحرفة والنظم الجائرة، والمذاهب الغاشمة إلى عدل الإسلام وظله، ولا يكون دافعنا إلى العمل والجهاد إلا امتثال أمر الله، والفوز في الآخرة، وما أعد الله لعباده من الأجر والثواب، ثم الشفقة، فإذا كان ذلك لا يمكن في مرحلة من مراحل الدعوة، أو في فترة من فترات التارخ — بعد تغلغل مبادئ الدعوة في نفوس الدعاة، ورسوخ العقيدة فيهم — إلا بالحكومة، سعينا لها لمصلحة الدعوة والدين، كما نسعى إلى الماء للوضوء، ونجتهد لهذا السبب بنفس العقلية، وبنفس السيرة، وبنفس العفة والنزاهة، والصدق، والأمانة، والخشوع، والتجرد الذي نجتهد معه لواجبات الدين وأركانه والعبادات الأخرى، فلا فرق للمؤمن بين الحكومة وبين العبادات إذا حصل الإخلاص، وصحت النية، فكل في رضا الله،

وكل في سبيل الله، وكل عبادة يتقرب بها العبد إلى الله".(١)

ويقول:

" والواقع أن الإخوان لو لم يشاركوا – لفترة قليلة أخرى – في السياسة العملية أو لو لم يتورطوا في تلك السياسة العملية، واشتغلوا بعملهم الدعوي والإصلاحي بكل ما أوتوا من قوة وصلاحية، لظهرت هناك ثورة إسلامية في البلدان العربية ونشأت حياة جدية، وقد علمت من عدد من المصادر الصحيحة التي يعتمد عليها أن الإمام حسن البنا كان يتأسف في آخر أيام من حياته ويتألم من أنه اضطر للدخول في المجال السياسي قبل أوانه، وأحاط به الطريق الشائك، وأنه كان يتمنى كثيراً إلى أن يعود – مرة ثانية – إلى العمل الدعوي التربوي الخالص، ويجد فرصة كافية لإعداد الجماعة، وتربية المسلمين حتى يستطيعوا القيام بكل مسؤولية تناط بهم، ويمر بكل محن يصابون بها، وبلاء يختبرون به بسلام آمنين" .(٢)

موقفه مع الحكام والقادة السياسيين وأسلوب خطابه معهم

إن الرسائل التي وجهها الشيخ الندوي إلى الحكام في الهند والعالم العربي في مختلف المناسبات عند اشتداد أي أزمة في الهند والعالم العربي والإسلامي، أكتفي بذكر نموذجين منها يدلان على منهج الشيخ الندوي في معالجة القضايا ويعرضان فكره، ويعبران عن صلته الدقيقة واطلاعه الواسع بالأحداث، وهمه للإنسانية والمسلمين.

---

١ - محاضرات في الفكر والدعوة: ٢٨/١، دار ابن كثير، دمشق، بيروت ٢٠٠١م.
٢ - في مسيرة الحياة: ٢٣٤/١- ٢٣٥.

كتب الشيخ الندوي رسالة مفصلة إلى إنديراغاندي رئيسة وزراء الهند، يشرح فيها الوضع السائد في البلاد في أيام حالة الطوارئ، والبطش والاستبداد الذي كان يواجهه الشعب في تلك الفترة ، يقول فيها بعد أن ذكر صلته بوالدها جواهر لال نهرو ، ونوه بخدماته في سبيل تحرير البلاد، وخدمات حزب المؤتمر الوطني في إرساء قواعد متينة للوطن بعد الحرية، وتضحيات الزعماء والقادة المناضلين للاستقلال، أمثال مهاتما غاندي، وموتي لال نهرو، وأبي الكلام آزاد، والآمال التي تعقد بابنة جواهرلال نهرو، ونوه بجرأتها وصرامتها وذكائها في سياسة البلاد.

" لقد توتر الوضع، وازداد سوءاً من ستة أشهر منذ بدأ تنفيذ تحديد النسل بشدة وعنف، وأخاف أن الأخبار الصحيحة لا تصلك، وإلا لما كان من المعقول أن تتدهور الأوضاع وتتحول من سوء إلى أسوأ، ولا يحتمل ذلك أي زعيم محنك مخلص للبلاد، محب للوطن، وإني أعتقد أن حكومات الولايات - على عكس مقاصد المشرفين على الحكومة المركزية والمسئولين عنها - قد اتخذت تنفيذ هذا القانون، والحصول على النجاح وسيلة هينة في السلطة والجاه، وهم يتسابقون في هذا، ويقع بسبب ذلك من المعاملة ما يقع من حكومة أجنبية ذات عقلية إدارية معلومة وعملائها وأذنابها مع المواطنين الآمنين الوادعين، وقد أنتج ذلك أن تحولت هذه البلاد إلى ثكنة يسودها القلق والرعب والخوف، ويرتكب الناس لتحقيق مآربهم التافهة والوصول إلى الهدف

المطلوب من تحديد النسل كل الأعمال الخسيسة والوحشية، فيصطاد العمال المساكين، والقرويون والمحترفون مثل اصطياد الوحوش والطيور في الغابات، وتستخدم وسائل الترهيب والعنف، والإطماع والترغيب حتى يكملوا هدفهم، ويشترط للمحافظة على الترخيصات الرسمية للتجارات، أو الحصول على الترخيصات الجديدة أن يقدموا كذا عدداً من الأفراد لتحديد النسل، وأصبح الموظفون الذين هم العمود الفقري للحكومة، والذين كانوا يتمتعون بحرية واحترام زائد إلى الآن، يعيشون في خوف وقلق، والأساتذة والمدرسون الذين عليهم عهدة تربية الجيل الجديد يعانون من الاضطراب النفسي والعقلي الشديد، وعاد هذا الموضوع حديث النوادي والمجالس، والناس في همّ وعذاب وبلاء.

وكان نتيجة هذه الأوضاع الطبيعية ذلك الانحطاط الخلقي الذي يسببه الخوف والطمع في بلاد عم فيها الجهل من سابق، ومن أخطر الجوانب وأشدها أسفاً أن أهل البلاد يكادون يحرمون من الشعور بكرامتهم، وثقتهم بأنفسهم، التي كانت وجدت بفضل جهود حركة المؤتمر الوطني، وجهود حركة الخلافة، ومساعي قادتنا السياسيين: غاندي ومولانا أبو الكلام آزاد، ومحمد علي جوهر، وأسرة نهرو، وظلت البلاد تشعر بأنها لا تزال تعيش حياة العبودية، والقهر، ولعله ما تمر لحظة يشعر فيها أي إنسان في هذه البلاد بأنها بلاد حرة ديمقراطية، بعيدة عن كل إجبار وإكراه، وعنف، استطاعت بجهودها

أن تنال حريتها واستقلالها من حكومة أجنبية، وأخذت بيدها زمام أمورها.

ولا أرى أحرص على إيجاد هذه الثقة والاعتماد وأقدر لها وأكثر شعوراً بقيمتها وضرورتها من أعضاء أسرة نهرو، فإن لهذه الأسرة نصيباً أساسياً في هذه الجهود، وقد سقوا هذه الشجرة بعروقهم ودمائهم، فكيف يسوغ أن يروا هذه الشجرة في عهد حكمهم وهي تذوى وتصفر، لقد مست الحاجة الآن إلى مراجعة الأوضاع في البلاد، فإن أي شعب إذا تعود على العبودية، والجبن، والخوف، وفقد صفات الجرأة والطموح، والثقة، وعمل - عكس ما يحب ويريد - تحت ضغط الخوف، أو طمع المال، واعتقد أن المحافظة على الحياة، والمنصب، والوظيفة أهم شيء، ولو على حساب الضمير، والغيرة، والثقة بالنفس، فإنه لا موضع للطمأنينة، والاستبشار لهذا الشعب مهما تقدم سياسياً واقتصادياً وتعليمياً في الظاهر، فإن البلاد بالشعوب، وليست الشعوب بالبلاد، والشعوب لا تعيش إلا بسيرتها، وصفاتها الباطنة الصالحة، وعزتها، وجرأتها الخلقية، لا بوسائل معيشتها، وارتفاع مستوى حياتها.

إنه لمن الفشل والخيبة لحركة تحرير البلاد وجهودها وقادتها أن يضطر الناس إلى تذكر عهد العبودية والحكم الأجنبي، وإنه لمن العار أن يتذكر الناس اليوم العهد الإنكليزي ويتمنوه"[١].

---

[١] - الشيخ أبوالحسن الندوي قائداً حكيماً، للأستاذ محمد واضح رشيد الحسني الندوي، ص: ٨٥- ٨٨، درالرشيد، لكهنؤ، الهند، الطبعة الثانية، ٢٠١٢م.

وفي أثناء مرض الشيخ الندوي زاره رئيس وزراء الهند أتل بهاري باجبائي في ٢٨/مارس عام ١٩٩٩م، فقال له: إن البلاد في خطر، فعليكم أن تتخذوا الإجراءات لوقايتها وسلامتها.

رسالته إلى جلالة الملك فهد بن عبد العزيز

وكتب الشيخ الندوي في ٦/١٢/ ١٩٩٠م إلى جلالة الملك فهد بن عبد العزيز رسالة تعرض مدى ما أداه من مسئولية، وواجب شرعي، وفريضة دعوية، واحتساب ديني، فقد جاء في الرسالة:

" إن العالم الإسلامي اليوم بصفة عامة، والجزيرة العربية والبلاد المقدسة بصفة خاصة، تمرّ اليوم بمرحلة دقيقة عصيبة مصيرية؛ لا تتحمل تأخير ساعة، ولا ادخار مجهود في مواجهة هذا الواقع ،ومعالجة هذا الوضع الخطير، وقد تفاقم الخطب، وكاد قول الله يصدق على الوضع الحاضر " بلغت التراقي، وقيل من راق" (القيامة: ٢٦- ٢٧).

والفقير ضناً بوقتكم الثمين، ومسئولياتكم الضخمة، يلخص القول بقدر الإمكان، ففي ذكائكم ومعرفتكم للدين، ودراستكم وتأملاتكم في القرآن العظيم، والحديث النبوي الشريف، والسيرة النبوية العطرة، وتاريخ الأمم والمجتمعات، ما يغني عن التطويل:

١- ملء فراغين عظيمين في حاضر الأمة الإسلامية – بجميع شعوبها وأقطارها – قد جنيا على كيان الأمة الإسلامية، وشق الدعوة الإسلامية طريقها إلى الأمام، وتسخير القلوب والعقول بقبولها، بل

وعلى التأمل فيها، وعرضا حاضر هذه الأمة، ومستقبل الوجود الإسلامي لخطر الردة الحضارية والانحرافات العقائدية والسلوكية، لابد من ملئها في أقرب وقت:

أولاً: عدم وجود مجتمع إسلامي مثالي يرضاه الله تبارك وتعالى، ويكون نموذجاً، بل مرآة للتعاليم الإسلامية في العقائد أولاً، ثم في الأخلاق والمعاملات وشعب الحياة ثانياً، يتنفس فيه الإنسان في طمأنينة وسكينة، ويشم فيه رائحة الإيمان، ويشعر بالسعادة الحقيقية، وكأنه انتقل من الجحيم إلى الجنة، ومن الشقاء إلى السعادة، ويرى فيه التعاليم الإسلامية والمبادئ الخلقية تطبق عملياً، ويرى الإسلام يسعى على قدميه، ويتكلم بلسانه، ويسود على المجتمع، من المسجد إلى السوق، ومن المحاكم إلى البيوت، ومن العقائد والمعاملات؛ ذلك المجتمع المثالي فقد اليوم تقريباً، وإعادته من حاجات الإسلام، بل من حاجات العالم الأولى.

ومن المعلوم الظاهر أن الحكومة السعودية التي نشأت وقامت على الدعوة وسعدت بالوصاية على الحرمين الشريفين والبلاد المقدسة، التي هي محط أنظار شعوب العالم، ومورد المسلمين السنوي الأكبر — بفضل الحج، ووجود الحرم المكي الشريف، والمسجد النبوي الشريف — أقدر على إبراز هذا المجتمع وتمثيله، ويقترن بذلك تأييد الله تبارك وتعالى ونصرته وحمايته.

ثانياً: والفراغ الثاني هو عدم وجود قيادة إيمانية دعوية قوية في

العالم الإسلامي، تقترن بصفات الرجولة والطموح، وعلو الهمة وبعد النظر، والقدرة على مواجهة القوى العالمية الرئيسية ا لقائدة، التي تملكت زمام القيادة البشرية، وأصبحت تتحكم في مصاير الشعوب والأقطار الإسلامية وغير الإسلامية، من غير حق ومبرر، كما ينبغي أن تتصف هذه القيادة بروح التضحية والبطولة والجلادة، وشيء من التقشف، والقدرة على المبادرات، وذلك لأن الناس ما زالوا مفطورين على حب روح الطموح والإقدام، وتحدي القوى الكبيرة — ولو تظاهراً أو دعاية — لأن ذلك مما يؤثر في عقيدتهم واتجاههم، إذا كان هؤلاء المتظاهرون أصحاب ضلال أو إلحاد — فضلاً عن الانحراف في السلوك والعمل — أو كانوا متصلين بفكرة أو فلسفة إلحادية، أو مؤامرة مسيحية صليبية "كحزب البعث العربي"؛ فإن الناس، خصوصاً الشباب الطموح الكاره للقوى العالمية المؤيدة لكل محاولة أو مخطط ضد الإسلام والمسلمين، أصبحوا يرحبون بكل ما يواجه هذه القوى بشجاعة — ولو مصطنعة — أو تحدّ — ولو بلسان دعائي — فيؤثر ذلك في العقيدة، وتعيين المواقف إزاء الحكومات الإسلامية، ولاشك أن وجود الفراغ من شيء ضروري وفي مصلحة معقولة، أمر غير طبيعي، لا يصلح للبقاء طويلاً.

فلابد من ملء هذا الفراغ، وصرف المتذمرين من تأثير الطاقات الكبرى في السياسة العالمية، وقدرتها على التدخل في شؤون الأقطار الإسلامية، في سياستها وقيادتها، من الاندفاع إلى هؤلاء

القادة الملحدين المتظاهرين، إلى قادة مخلصين متدينين سليمين؛ و الحكومة السعودية أجدر، بل وأقدر عليه بتشرفها بخدمة الحرمين الشريفين، ومركزها في الجزيرة العربية، وحملها للعقيدة الإسلامية الصحيحة، وبعدها عن فساد العقيدة والبدع والمنكرات، وأنتم يا خادم الحرمين الشريفين، جديرون بذلك بما حباكم الله به من طيب المَحْتِد وكرامة المَولِد، وما عرف من تاريخ أسرتكم في القديم والحديث من اعتمادها على الله، وتحكيمها لكتابه، والتزامها بنهج رسول الله صلى الله عليه وسلم" .(١)

موقفه مع قضايا المسلمين عامة ومنهجه في حلها

بجانب إرسال رسائل إلى الحكام والقادة ولقاءاته مع الزعماء والدعاة، كان الشيخ الندوي يوجه خطابات وكلمات إلى عامة المسلمين حيناً لآخر، يرشدهم إلى طريق يكسب لهم النصر، ويمنعهم من اتخاذ موقف متطرف أو رد فعل، فقال في إحدى خطاباته بعد ما قدم في بداية الخطاب صورة صادقة للوضع الذي لم يعرض الشخصية الإسلامية، والنشاطات الدعوية، والأعمال الإصلاحية، وسلامة البلاد وتأمينها، والمساجد والمدارس، وشرف المسلمين وكرامتهم، ومجدهم وعزهم في البلاد، للخطر فحسب، إنما جعل الثروة الدينية والثروة العلمية التي تمتد جهودها قروناً طويلة عُرضة للخطر، ثم أكد على ضرورة دعم الصلة بالله تبارك وتعالى، والإنابة إليه، والرجاء منه،

---

١ - في مسيرة الحياة: ١٠١/٣- ١٠٢، الطبعة الأولى ١٩٩٨م، دار القلم، دمشق.

وإعادة الثقة والهمة، لأنه قد جلب في كثير من الأحيان نصر الله وتأييده على عكس ما تقوله التخمينات والتقديرات، فتغير الوضع، وتغيب الظلام، وحدثت ثورة بهرت الألباب وغيرت مجرى التاريخ:

١ - أن يدعموا صلتهم بالله، ويتضرعوا إليه، ويستنصروه ويستعضدوه، ويتوكلوا عليه، ويستغفروه، واستشهد في هذا الصدد بالمنهج الذي سلكه النبي صلى الله عليه وسلم في الساعات العصيبة المفزعة، فجاء في الحديث النبوي الشريف، أنه كان يفزع إلى الصلاة، ويأمر بها، عند الشدائد والنوازل.

٢- أن يتجنبوا المعاصي والذنوب، ويؤدوا ما عليهم من الفرائض، والحقوق، ويتحلوا بشيء من الورع والتُقى، والعفاف والزهد، وقدم في هذا الصدد مقتبساً من رسالة كتبها أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز إلى قائد جيش المسلمين يقول فيها:

"إن تقوى الله أفضل العدة، وأبلغ المكيدة، وأقوى القوة، وأن يكون من شيء من العدو أشد احتراساً منه لنفسه، ومن معه من معاصي الله، فإن الذنوب أخوف عندي على الناس من مكيدة عدوهم، وإنما نعادي عدونا وننتصر عليهم بمعصيتهم، ولولا ذلك لم يكن لنا قوة بهم، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فلو استوينا نحن وهم في المعصية كانوا أفضل منا في القوة والعدد، فإنا لا ننتصر عليهم بحقنا ولا نغلبهم بقوتنا".

٣- أن يؤدوا مسئولياتهم كدعاة وهداة، يقوموا بالتعريف

عن الإسلام، وينتهزوا كل ما يُتاح لهم من فرص للدعوة إلى الله، وعرض الإسلام في صورته الأصيلة، وإزالة سوء التفاهم الذي يوجد بينهم وبين الهندوس، ويثير الحقد والكراهية، والسخط والامتعاض فيما بينهم، وذكر في هذه المناسبة تقصير المسلمين في القيام بالدعوة، وأداء الأمانة، وتبليغ الرسالة، وحمل أعباء الخلافة، وبين سماحته في هذا الصدد خبراته وتجاربه الشخصية في هذا المجال، وأشار إلى الكتب التي تساعد على تحقيق هذا الهدف، وتقنع عقول المعاندين بالبراهين والأدلة القاطعة.

٤- أن يتصفوا بصفات يتميزون بها عن غيرهم، من الصبر والجلادة، والحلم والأناة، والجود والكرم، والإيثار والتضحية، والعزم واليقين، والبطولة والبسالة، ويتحملوا الآلام والشدائد في سبيل الدين، ويفعلوا ذلك مؤمنين، محتسبين، واثقين بنصر الله وتأييده، ويتمنوا لقاء الله عز وجل، ويحنوا إلى الشهادة، ويشتاقوا إلى الجنة، ويدرسوا لذلك الكتب التي ألفت حول حياة الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، وعاداتهم ومناهجهم، ومآثرهم وأمجادهم.

٥- أن يهتموا بتعليم أبنائهم تعليماً دينياً، وتربيتهم تربية إسلامية، فيعلموهم العقائد الإسلامية، والأحكام الشرعية، والأخلاق الفاضلة، ويُنَشئوا فيهم الثقة بالإسلام، وشموله وكماله، وصلاحيته لإنقاذ البشرية التائهة، وإسعاف من يتعرض للدمار والهلاك، ويهتموا بذلك أكثر من اهتمامهم بطعامهم وشرابهم، وثيابهم، وسكنهم،

وصحتهم ومرضهم، لأنهم إذا أغفلوا ذلك، وتغاضوا عنه، ظهرت نتائج وخيمة، وعواقب خطيرة، عميقة الجذور، بعيدة المدى، وواسعة الأطراف، ولا يمكن بدون ذلك أن يبقى النشء الجديد المسلم مسلماً يعتزّ بدينه، ويفتخر بثقافته، ويعتبر الإسلام منقذاً للإنسانية البائسة المنكوبة المضطهدة، لأن المنهج التعليمي، والمقررات الدراسية التي تخضع لها المدارس الحكومية في هذه الأيام، و وسائل الإعلام، والصحافة، والمجتمع، والبيئة، كل ذلك يدعو إلى ارتداد ديني، وثقافي، وذهني، وعقائدي.(١)

إنشاء حركة رسالة الإنسانية:

لقد أنشأ الشيخ الندوي لحبه للإنسانية حركة رسالة الإنسانية التي كانت تهدف إلى إصلاح المجتمع الإنساني بغض النظر عن الطبقات والأديان في عام ١٩٧٤م بحملة شعبية لإيقاظ الضمير الإنساني إثر حوادث العنف، والاستغلال، وفشو الرشوة في الأوساط الرسمية، وقتل الزوجات، وقد عبر بعض القادة من المسلمين عن مخاوفهم بهذه الحركة بأنها تؤدي إلى وحدة الأديان، أو أنها تحول عن عمل الدعوة إلى الإسلام، والواقع أن هذه الحركة كانت مجهوداً لتقويم سلوك الإنسان، وبث المثل الخلقية في المجتمع البشري التي تتفق عليها جميع الأديان، وقد اقتضت ظروف المعيشة التي غزتها المادية الرعناء، وحب المال، وحب الجاه، والمصلحة مثل هذه الحركة، وهي

---

١ - مسيرة الحياة، الجزء الثالث ص: ٩٢

حاجة العصر، لذلك نالت هذه الحركة القبول من سائر الأديان، و وراء هذه الأهداف الإنسانية هناك هدف آخر، وهو ملء الخليج بين المسلمين وغير المسلمين، وإتاحة فرص اللقاء بين المسلمين وقادتهم، وبين قادة الأديان الأخرى لإزالة الشكوك والشبهات في المسلمين التي تبثها الحركات الطائفية المعادية للإسلام والمسلمين، وعرض الوجه النقي لتاريخ الإسلام، وعرض صور التسامح التي تشتمل عليها تعاليم الإسلام، وقد شوه هذا الوجه و زور التاريخ المستشرقون وتلاميذهم بكتب موجهة تعتدي على الإسلام والمسلمين، وقد حققت هذه الحركة هذا الهدف الكامن، فاعترف بعض القادة من غير المسلمين أنهم ما كانوا يعرفون أن المسلمين أيضاً في قلوبهم محبة للإنسانية وللوطن، وإنما كنا نعرف أنهم حملة السيف.

ولم يمنعه الاشتغال بالتنصيف والتأليف، والتدريس عن معالجة القضايا العامة، سواء كانت هذه القضايا تتصل بالمسلمين، أو بغير المسلمين، فكانت حياة الشيخ الندوي حافلة بالنشاطات الاجتماعية، ولذلك كان يتابع مجريات الحياة، فلما شاهد الشيخ الندوي تدهور الأحوال الاجتماعية، وطغيان المادة، وفساد البيئة العامة تصدى لمواجهته، وكان إنشاء حركة رسالة الإنسانية رمزاً لهذا الاهتمام بإصلاح البيئة العامة، وكان سماحته يشعر أن المجتمع الإنساني بمثابة سفينة إذا غرقت هذه السفينة غرق جميع أفراد هذا المجتمع.

وفي عام ١٩٨٢م قام الشيخ الندوي برحلات متتابعة في أنحاء الهند المختلفة، وأقام اتصالات بالقادة ورجال الفكر.

وفي أحد هذه الاجتماعات، والذي عقد في حيدرآباد صرح سماحته :

"إن لكل إنسان في هذه الحياة دارين: دار يسكنها هو وأعضاء أسرته، ويحرص كل إنسان أن تكون هذه الدار مأمونة، وأن يعيش فيها بسلام، وهناك دار أخرى وهي أكبر من هذه الدار الشخصية، وهي دار البلاد، ونحن ننسى في غالب الأحوال عن هاتين الدارين كلتيهما لنا، إحداهما صغيرة، فيها أسرة واحدة، والأخرى كبيرة فيها المواطنون، وهم أفراد الأسرة الوطنية الكبرى، وترتبط مصلحة الدار الصغيرة بمصلحة الدار الكبرى، فإذا فسد نظام الدار الكبرى فسد نظام الدار الصغرى"، وقال :

إن فساد المجتمع، وإهمال مبادئ الأخلاق، وغلبة الشر، وحب المال يؤدي إلى فساد كل فرد من أفراد المجتمع.

وصرح الشيخ الندوي في كلمة ألقاها في إحدى الاجتماعات : "إن العالم الإنساني يحتاج فيما يحتاج إليه إلى أن توضع أمام الإنسان بالارتفاع عن المصالح الذاتية والعصبيات القومية والمصالح السياسية، تلك الحقائق والقيم التي تلزم لنجاته وحياته بأمن وسلام، وهي حقائق إذا أغفلناها تعرضت حضارتنا ومجتمعنا لأخطار جسيمة، وواجهت الإنسانية صراعاً عنيفاً، قد بين هذه الحقائق الأنبياء في

عصورهم، وجاهدوا في سبيلها، و لا تزال هذه الحقائق تحمل هويتها وتأثيرها ونفعيتها للإنسان وتقدر أن توصل الإنسان اليوم إلى النجاة، لكن الحركات والمنظمات المادية، والنزعات القومية أثارت الغبار الكثيف على الأنظار، ولكن ضمير الإنسان لم يمت رغم هذه العواصف الهوجاء، ولم يجمد ذهن الإنسان، ولم يتعطل عن العمل، فإذا عرضت الدعوة إلى هذه الحقائق بإخلاص وبأسلوب سهل يفهمه الإنسان اليوم، فإن ضمير الإنسان وذهنه سيتجاوبان لهذه الدعوة، ويعرف الإنسان أن هذه الدعوة بلسم لجروحه.

وقد حققت هذه الحركة هدف التقارب بين المسلمين وغيرهم، وجمعت على رصيف واحد أعداءهم الذين اعترفوا بعد سماع كلماته أن هذه الحركة حاجة العصر، وتغيرتصورهم عن المسلمين، وبذلك أتيحت لهم فرصة دراسة الإسلام، وتغير موقفهم إزاء قضايا المسلمين، بل قدم عدد منهم خدماتهم لحل قضايا المسلمين، وأصبحوا مدافعين عنهم، وكانوا يقومون بزيارة الأماكن التي تحدث فيها الاضطرابات الطائفية، ويشتركون في أعمال الإسعاف، وقد ساعدت هذه الاجتماعات في بعض الأماكن على إخماد الفتن وتهدئة الأعصاب ضد المسلمين.

وقد عارض بعض العلماء المخلصين العاملين في مجال الدعوة الإسلامية هذه الحركة لعدم فهم أهدافها ونوايا القائمين بها، وناقش بعضهم الشيخ الندوي في هذه المسألة، ولكن الشيخ الندوي واصل

جهوده في هذه الجهة إلى آخر أيام حياته، وكان يثبت همم العاملين في سبيله ويؤيدهم.

منهجه لإصلاح المجتمع المسلم

ولإصلاح المجتمع المسلم قاد الشيخ الندوي حركة إصلاح المجتمع الإسلامي لتنقية ما دخل في حياة المسلمين من عادات وتقاليد لا يقرها الإسلام، وعقد أول مؤتمر لعموم الهند لإصلاح المجتمع الإسلامي في ندوة العلماء برئاسة سماحة الشيخ الندوي، ثم فتحت فروع في المدن الأخرى، وتحولت هذه الحركة حملة مكثفة في عموم الهند، وكان لها أطيب الأثر، وكان من أهدافها مكافحة الاستغلال، والإسراف في الزواج، والمطالب الغالية، ومكافحة التمييز على أساس العائلة أو الطبقة أو الوضع الاقتصادي، وذلك في ضوء تصوره أن لكل إنسان دارين: دار صغيرة، و دار كبيرة، ولا يتم الإصلاح إلا بإصلاح الدار الصغيرة، والدار الكبيرة.

بالإضافة إلى هذه النشاطات، كان سماحته دائم الفكرة، والحذر عن الاتجاهات والنزعات الهدامة، كالقومية، والتفرقة العنصرية، والاعتداء على الضعفاء، واستغلال الإنسان، والتحديات الثقافية، والأخطار التي تحدق بالأمة الإسلامية، فكان يهب في كل موضع خطر، ويرفع صوته، فحارب بقوة القومية العربية التي تحولت إلى عقيدة و دين، وحارب النزعة الاشتراكية التي أدت إلى إلحاد، وراسل الحكام المسلمين والملوك المسلمين، يدعوهم بأسلوب

حكيم إلى الحفاظ على الثقافة الإسلامية، وكان ينصحهم كلما أتيحت له فرصة اللقاء بهم ليتخذوا وسائل كفيلة لوقاية البلدان الإسلامية من الذوبان، أو الاندثار والتبعية للقوى الخارجية، وتربية الجيل الجديد تربية دينية، من دون أي تقصير في اتخاذ وسائل مادية لرقي البلدان الإسلامية (١).

كان الشيخ الندوي يؤكد خلال حديثه مع المسلمين على أن يشتركوا في أعمال بناء الوطن، ويزيلوا من مجتمعهم أسباب التخلف، والصراع، والجهل، وأن يكون وجودهم باعث الخير والبركة لهذه البلاد، وقد نصح المسلمين لحل قضية سارة بانو المشهورة، وقضية المسجد البابري، وقضية القانون الموحد للأحوال الشخصية؛ باختيار طريق كسب ثقة أصحاب الضمائر الحرة والإنسانية من غير المسلمين لتأييد القضايا الإسلامية، وإجراء اتصال برجال الحكم بغض النظر عن حزبهم الذي ينتمون إليه، أو سياستهم التي يتبنونها، وكذلك بالقادة والزعماء من الأغلبية الحاكمة، وحتى مع كبار الكهنة الهندوس، وزعماء الأحزاب المتطرفة، وإجراء الحوار معهم، وبذل المجهود لنيل الحقوق المشروعة في إطار القانون والنظام، ومنع عن اتخاذ طرق العنف، والمظاهرات والاعتصامات والاحتجاجات، وكان موضوع خطابه حتى في أيام مرضه" ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله

---

١ ليراجع إلى ما كتبه سماحة الشيخ الندوي في "ماذا خسر العالم" و"الصراع" و"نحو التربية الإسلامية الحرة".

يجعل لكم فرقاناً﴾ (١) وكان يشرح الفرقان بأن تتميزحياة المسلمين عن غيرهم كلياً في سائر مجالات الحياة، وتتصف بالصدق، والأمانة، والإخلاص، والاجتهاد، والمؤاساة، والإيثار، فيكسبوا بهذه الخصال حب من يعايشهم وتقديرهم ويعتبروا بركة ولا وبالاً للبلاد.

لقد كان الشيخ الندوي بهذه الجهود داعياً إسلامياً، وإنسانياً، ومفكراً عظيماً، وعاملاً نشيطاً، ومجتهداً، صابراً في وجه الغزو، فكان خير خلف لأسلافه، وجامعاً لخصائصهم، ومميزاتهم، ولم تمنعه من هذه النشاطات أمراضه، وأشغاله المختلفة المتعددة، بل واصل جهده إلى آخر أيام حياته.

وقد كان الشيخ الندوي رجلاً قرآنياً، فكان منجه وأسلوب دعوته مستمداً من القرآن الكريم وكانت هذه الآية القرآنية الكريمة نصب عينيه دائماً: " ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ " (سورة النحل: ١٢٥).

---

١ سورة الأنفال الآية: ٢٠٨

فهرس المحتويات

الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي وشغفه بالقرآن الكريم ١٥

نماذج من استشهاده بآيات القرآن الكريم ٢١

مفهوم الدعوة

استعراض الحياة في ضوء القرآن ٢٣

الدخول في السلم كافة ٢٥

لهو الحديث ٢٩

معنى التزكية وتعليم الكتاب والحكمة ٣٠

إعجاز القرآن الكريم: ٣٥

القرآن كتاب هداية ودعوة ٣٨

لماذا لم يترجم الشيخ الندوي معاني القرآن إلى الأردية؟ ٣٨

الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي وصلته بالحديث النبوي الشريف ٤١

دراسة الحديث النبوي في الهند ٤١

نشأة الشيخ أبي الحسن الندوي ٤٣

نظرته إلى دراسة الحديث النبوي ٤٥

سعة دراسته لكتب الحديث النبوي	٤٧
شغفه الزائد بالحديث النبوي	٤٩
موقفه من دراسة الحديث النبوي	٥١
استناده في كلامه إلى الحديث النبوي	٥٣
قصة شغفه بالحديث الشريف	٥٩

الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي

وعناصر تكوين ذوقه الأدبي ٦٤

شغفه بالأدب الأردي	٦٥
أسلوبه للكتابة العربية	٦٦
شهادات الكتاب العرب النابهين واعترافاتهم	٦٨
استفادته من الشيخ تقي الدين الهلالي	٧٦
موقفه من أهمية الصحافة في تعليم اللغة	٧٩
إدراكه لنقص العمق في الأدب الجديد	٨٠
أول كتابة عربية	٨١
تأثره بكتاب زاد المعاد في هدي خير العباد	٨١
تصوره عن الأدب ودوره في الحياة	٨٤

الشيخ أبو الحسن علي الحسني الندوي

أسلوب دعوته ومنهج تفكيره ٨٧

تجربته مع الحركات الإسلامية المعاصرة وموقفه إزاءها	٩٢

اتصاله بحركة الدعوة والتبليغ وموقفه إزاءها	٩٤
جماعة الإخوان المسلمين وموقف الشيخ الندوي إزاءها	٩٦
موقفه مع الحكام والقادة السياسيين وأسلوب خطابه معهم	٩٩
رسالته إلى جلالة الملك فهد بن عبد العزيز	١٠٣
موقفه مع قضايا المسلمين عامة ومنهجه في حلها	١٠٦
إنشاء حركة رسالة الإنسانية :	١٠٩
منهجه لإصلاح المجتمع المسلم	١١٣